كيث وايتلام - توماس طمسن
نيلز لمكة - إنغريد هيلم
زياد منى

الجديد في تاريخ فلسطين القديمة

ترجمة : عدنان حسن
زياد منى

لطلب الكتب الكترونيا:
https://t.me/NoorAlbersi_Library
Tele: Intellectualrevolution

الجديد في تاريخ فلسطين القديمة

الجديد في تاريخ فلسطين القديمة
تأليف: كيث وايتلام، توماس طمسن، نيلز لمكة، إنغرِد هيلم، زياد منى
التدقيق اللغوي: أيمن شنار
تصميم الغلاف: زياد منى
إعداد وإخراج: زياد منى. اخراج إلكتروني: محمد غيث الحاج حسين
الطَّبعة الأولى: تموز (2004) جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ لقدمس للنشر والتوزيع©

التوزيع في سوريَة : قَدْمُس للنشر والتوزيع
شارع ميسلون، دار المهندسين (0905)، الفردوس
ص ب (6177)
دمشق، سوريَة
هاتف: (+11 963) 9836 222 برّاق: 7226 224
جوّال: (+94 0 961) 167 517
بريد إلكتروني ‹cadmus@net.sy›؛ ‹books@cadmusbooks.net›

التوزيع في العالم: شركةُ قَدْمُس للنشر والتوزيع (ش م م)
ص ب (6435 / 113)؛ شارع الحمرا ، بناء رسامني
بيروت، لبنان
هاتف : (+1 961) 054 750، برّاق: 053 750
جوّال : (+3 0 961) 512 620؛ 411 722
بريد إلكتروني: ‹daramwaj@inco.com.lb›
لابتياع إصداراتنا على (الشبكة) انظر : ‹www.alfurat.com›

التوزيع في الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع
وسط البلد، خلف مطعم القدس؛ ص ب (7772) عمّان 11118، الأردن
هاتف: (+6 962) 8688 463؛ برّاق: 7445 465
بريد إلكتروني: ‹alahlia@nets.jo›

لقراءة إصدارات الدار على (الإنترنت) انظر: ‹http://library.ajeeb.com/cadmus›
لابتياع نسخ إلكترونية من هذا الكتاب، انظر ‹http://www.arabicbook.com›
إنّ الآراءَ الواردةَ في هذا الكتابِ لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار.
السعر: (7) يورو. السعر في سورية (300) ل س.
عدد كلمات الكتاب: (59500) كلمة تقريبًا.

كيث وايتلام
توماس طمسن
نيلز لمكة
إنغرِد هيلم
زيادَ منى

نورالمعموري
Intellectualrevolution

الجديد في تاريخ فلسطين القديمة

ترجمة: عدنان حسن، زياد منى

قَـدْمُس للنـشر والتـوزيع

http: / /library.ajeeb.com /cadmus

لابتياع نسخ الكترونية من إصدارات قدمس

http: / /www.arabicebook.com

الإهداء

إلى السيدة الفاضلة عفاف بدي اسرب
حرم المرحوم محمد اسرب

المحتوى

ملاحظات الناشر عن النص والمراجع في الكتاب.....13
تنويه الناشر.....15

1) إعادة اكتشاف تاريخ فلسطين القديمة (كيث وايتلام) 19
1/ 1) مقدمة 19
1/ 2) تصور تاريخ معين لفلسطين القديمة 26
1/ 3) إعادة اكتشاف تاريخ فلسطين 31
1/ 3/ 1) مرحلة الانتقال من العصر البرونزي المتأخر
إلى العصر الحديدي.....31
1/ 3/ 2) الانتعاش في العصر الحديدي الثاني 40
1/ 4) خلاصة 45
2) هل ينبغي علينا أن نترك التاريخ لعلماء الآثار؟ (توماس طمسن) 47

2/ 1) عصر ذهبي؟ 54
2/ 2) حزقيا أمثولة 62
2/ 3) نهاية الحرب..... 65

3) من العصر الحجري إلى إسرءيل (توماس طمسن) 73

4) يشوع والعنف الغربي (نيلز لمكة) 103
4/ 1) نموذج الغزو 108
4/ 2) نموذج الهجرة 109
4/ 3) فرضية الثورة 110
4/ 4) فرضية النشوء 112

5) استخدام التاريخ ذريعة للاستيلاء على الأرض (نيلز لمكة) 121
5/ 1) مقدمة قصيرة 121
5/ 2) الذريعة التاريخية 122
5/ 3) المستوى العلماني والديني 126
5/ 4) المعتقدات التاريخية المتناقلة من العهد القديم 128
5/ 5) كيف نشات الأفكار التوراتية
عن تاريخ فلسطين القديم؟ 134
5/ 6) الحق في فلسطين 137
5/ 7) التطورات الأخيرة 137

5/ 7/ 1) في التاريخ 138
5/ 7/ 2) في التأريخ 139
5/ 7/ 3) في إعادة كتابة التاريخ 140

6) توراة من، بأي حال؟: تاريخ فلسطين في العصر الحديدي في الألف الأول قبل التأريخ الشائع، بناءً على المخطوطات القروسطية العائدة إلى الألف الأول من التأريخ الشائع (إنغرِد هيلم) 141

6/ 1) (كتاب) من، بأي حال؟ 141
6/ 2) النصوص الكتابية والمؤلِّفون القدماء:
مغالطات مفارقة تاريخية/ زمنية 144
6/ 3) الحكاية الكتابية والواقع التاريخي:
بعض الملاحظات 154
6/ 4) إن لم يكن القرن السابع-السادس
(ق ت ش)، فمتى؟ 158

7) أنشودة انتصار مرنفتاح وإسرءيل وشعب فلسطين
(توماس طمسن وإنغرِد هيلم) 163

8) تاريخ فلسطين القديمة: التلفيق والحقيقة (زياد منى) 179

الهوامش 107

الفهارس.....229
ثبت عام.....231
ثبت الشعوب والممالك والطوائف.....235
ثبت المؤلفين.....237
ثبت الأعلام.....241
ثبت جغرافي.....243
ثبت الاقتباسات الكتابية.....247

ملاحظات الناشر
عن النص والمراجع في الكتاب

- المادة اللغوية بين الأقواس المزدوجة « » تشير إلى أنَّ النصَّ مقتبسٌ .
- المادة اللغوية المكتوبة بين ‘ ’ تشير إلى أنها اقتباس ضمن اقتباسٍ آخرَ .
- المادة اللغوية بين قوسين منفردين ( ) تشير إلى المصدر الذي اقتبست منه النصوص المقتبسة.
- المادة اللغوية بين الفواصل المقلوبة " " تعني أنها اعتراضٌ على المحتوَى، من الكاتب الأصلي إذا كان النصُّ مقتبسًا ، أو من مؤلِّف الكتاب .
- المادة اللغوية في إطار كبير مقسوم [ ] تشير إلى أنها ليست موجودة في النص الأصلي أو مؤلف الكتاب.

14
الجديد في تاريخ فلسطين القديمة

تنويه الناشر

يضم هذا الكتاب مجموعة من الأبحاث ألقى أصحابها جزءًا منها في ندوة أقامها (معهد زايد للبحوث والمتابعة) في حزيران من عام (2003 م) قبل حلِّه في أواخر العام نفسه. وقد تفضل البحاثة، مشكورين، بإعادة صياغة محاضراتهم لتناسب الطبعة الورقية، حيث أضافوا إليها نصوصًا محدثة، وكذلك الهوامش والمراجع التي لم تكن موجودة في المحاضرات الأصلية.

الإسهام الأول يعود إلى البرفسور كيث وايتلام، رئيس قسم اللاهوت في جامعة شفيلد بالمملكة المتحدة، الذي ألقاه في محاضرة في دمشق التي حلَّ ضيفًا عليها في ربيع عام (2000 م) بدعوة من دار قدمس.

إضافة إلى نصوص المحاضرات التي أشرت إليها، فقد قدمت الدكتورة إنغريد هليم والبرفسور توماس طمسن والبرفسور نيلز لمكة أبحاثًا إضافية بهدف إثراء هذا المجلد الخاص، الذي قرر الناشر، بالتنسيق مع كل المشاركين وترحيبهم، إهداءه للسيدة الفاضلة عفاف بدي اسرب، تعبيرًا عن امتنانه القلبي الخالص لكرمها واهتمامها العلمي الحقيقي والتي عبَّرت عنه بأشكال متنوعة، منها توفير كثير من المراجع التي كان الناشر بأمسِّ الحاجة إليها عندما

كان لا يزال مقيمًا في ألمانيا يتابع أبحاثه.

إن دار قدمس للنشر والتوزيع تقدم هذا المؤلَّف الجديد للقارئ العربي، الذي يضم بين دفتيه أحدث الأبحاث في تاريخ فلسطين القديمة في العصر الحديدي أساسًا، أي: من القرن الثاني عشر إلى القرن التاسع قبل التأريخ الشائع، التي تثبت، من جديد، عقم منهجية اعتماد (الكتاب) مرجعًا تاريخيًا. إن هذه الأبحاث، مجتمعة، توضح الحاجة الماسة لإعادة النظر في الفكرة السائدة، وتأسيس علم تأريخ عربي جديد خاص ببلادنا، يبتعد عن الأساطير والخرافات، أيًا كان مصدرها، ويعتمد المنهجية العلمية أساسًا للبحث والاستنتاج.

الآن نود شرح بعض الأشياء التي واجهتنا والتي نرى ضرورة لفت انتباه القارئ إليها.

أولاً: لقد استخدم الكتَّاب التعبيرين (Before Current Era, BCE) و(Current Era, CE) الحديثين للدلالة على التاريخ بدلاً من (Before Christ BC, Anno Domini AD) للدلالة على التاريخ. والتعبير الأول أخذ به كثير من العلماء المجددين لأنه يعكس رؤية تاريخية علمية، أي: حيادية، تجاه أي دين. والتزامًا منا بالتقيد بمعنى النصوص الأصلية وروحها، قمنا بترجمة التعبيرين إلى (قبل التأريخ الشائع، والتأريخ الشائع) بدلاً من: قبل الميلاد، و: ميلادي/ ميلادية)، علمًا أننا لا نريد من وراء ذلك أي إيحاء عَقِدي.

ثانيًا: لقد واجهتنا معضلة كيفية ترجمة (ancient israel، Israelites) حيث إن الرديف المتعارف عليه هو: إسرائيل القديمة. لكن لما كانت هذه الصيغة توحي بوجود تكامل بين "إسرائيل القديمة" ودولة العدو في فلسطين المحتلة، فقد آثرنا الإشارة إلى "المملكة التوراتية" بصيغة (إسرءيل، بنو

إسرءيل) موظفين الرسم القرآني لتمييز الطرفين.

ثالثًا: لقد واجهتنا معضلة في مسألة الإشارة إلى مدينة القدس باسمها القديم، وفق الرأي السائد، أي: أورشليم. ونظرًا للبعد السياسي لمثل هذا التوظيف، وابتعادًا منا عن أي أسماء إيحائية، رأينا أن أفضل صيغة نوظفها هي التي ترد في نصوص تل العمارنة، أي: أورسليم، وذلك وفق الرأي السائد، وبصرف النظر عما إذا كان المعني المكان ذاته.

زياد منى

دمشق في (15) أيار (2004)

1) إعادة اكتشاف تاريخ فلسطين القديمة* (كيث وايتلام)

1 / 1) مقدمة

إذا صدَّقنا ما جاء في العديد من الكتب المتخصصة بالموضوع، فإن تاريخ فلسطين لم يبدأ، على ما يبدو، إلا في العصر الحديث. فثمة فترات حاسمة من تاريخها القديم جرى العزوف عن الإمعان في استكشافها، بل ولا تظهر على الإطلاق في العديد من المنشورات. ففي العديد من الروايات الحديثة هناك، على ما يبدو، قطيعة حاسمة بين الماضي القديم والتاريخ الحديث، ما يؤدي إلى جعل فلسطين تبدو محرومة من امتلاك تاريخ متصل، يربط الماضي القديم بالحاضر. وسأحاول إيضاح المعنى. إن استعراضًا لفهارس مكتبات الجامعات البريطانية الكبرى (COPAC) بحثًا عن الكتب المختصة بشأن تاريخ فلسطين يكشف عن وجود (278) عنوانًا، تنصب أكثريتها على معالجة الفترة الحديثة والنضال الفلسطيني في سبيل إقامة الدولة . . عدد قليل فقط يتناول الماضي القديم وقد ألَّف معظم هذه الأخيرة باحثون غربيون مهتمون بفلسطين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من منظور كتابي. غير

3) من العصر الحجري إلى إسرءيل (توماس طمسن)

عندما يطرح المرء أسئلة تاريخية عن أصول إسرءيل، ويرغب في التوغل في تراث من التأريخ النقدي يحاول أن يتعامل مع 'عالم من الماضي يُعدُّ حقيقيًا وواقعيًا، وبمقدار ما يمكن بلُغة الأدلة'، فإن النواة المركزية لاستقصائنا تبدأ بتحديد هوية موضوع استقصائنا: إسرءيل[1]. هذه ليست نقطة انطلاق سهلة أو واضحة بأي حال من الأحوال. فالسرد التاريخي يجري تطويره تطويرًا نموذجيًا من خلال تفسير وصفي: من السابق إلى اللاحق وفق التسلسل الزمني. وهذا يسمح لمنطق السببية، يدعوه بعضهم (اتجاه القصة/ story line)، أن يتطور من دون أن تعيقه البدائل عن عدد لا نهائي من الإمكانيات. مع ذلك، من الناحية الإجرائية، فإن البحث التاريخي والاستقصاءات التاريخية، مثل الحفريات الأثرية، تبدأ على السطح وتحفر باتجاه الوراء في البقايا المفتتة للماضي. وكذلك مثل الحفر الأثري، فإن القرارات المتخذة على سطح الفهم الراهن غالبًا ما تقرر أهمية النتف من الماضي التي يكشف عنها المرء. لحسن الحظ أن ما يحمي المؤرخ من الأنانية (solipsism) هي مفاجآت الحفر التي تكذب فرضياته السطحية من خلال البقايا الحقيقة للماضي التي يكشف عنها البحث[2].

@NoorAlbersi_Library
Tele: Intellectualrevolution

بهذا الخصوص، فإن إلحاح جيه مَكسول مِلر (J. Maxwell Miller) على أن التراث الكتابي يجب صونه أساسًا لإعَادة بناء تاريخ أصول إسرءيل هو صحيح على نحو مطلق[3]، واعتراضي السابق على ذلك لدى المجادلة، أن التراث لم تكن له علاقة بتاريخ أصول إسرءيل، اعتراض خاطئ[4]. فلولا التراث الكتابي لما كان لدينا أي شيء نطرح عنه أسئلتنا التاريخية بشأن الأصول، لأن أصل إسرءيل التراث هو بالضبط ما ننشده. إسرءيل لا يمكن تحديد هويتها بعيدًا من أدب ‹الكتاب› الذي يوجد فيه. ففي حين قد يكون من الممكن والضروري أن نكتب تاريخًا لأصول إسرءيل مستقلاً عن وجهات نظر التأريخ الكتابي، استنادًا إلى الأدلة بدلاً من العقيدة أو اللاهوت، فإن فهمنا لإسرءيل التي نبحث عن أصولها هو نتاج لذاك التراث الكتابي والعقيدة واللاهوت، ولا معنى له من دونه.

إن 'الإسرءيلات' التي نجدها في المصادر غير الكتابية هي غير ملائمة إطلاقًا لمهمة معرفة أصول إسرءيل. في رُقَيْم مرنفتاح (Mernptah Stele) الذي يشير إلى إسرءيل، لدينا ما يبدو أنه كان أقدم نمط لمجاز أدبي على هيئة تشبيه إيبونيمي (متصل باسم شخص يرتبط باسم مكان) لأجل الحماية على أرض حورو (أي: فلسطين)[5]. هذا الأب (الإيبونيمي) للبلاد، الذي يُستبدل دوره حاميًا لفلسطين بالفرعون المصري في رُقَيْم مرنفتاح، مشابه تمامًا لِ"إسرءيل" الذي نجد أنه يستخدم فيما بعد في التراث الكتابي للإشارة إلى كل شعب يهوه، ويُبرز في الماضي البعيد في قصة أصول ما 'أصبح' بفعل العقاب الإلهي بقية مفتتة منقذَة. هذا الشخص الكتابي، الذي يمكن أن ندعوه (إسرءيل الجديد)، أو (إسرءيل المبعوث حيًا/ Israel redivivus) هو، في تعريفه الذاتي، على نحو مؤكد تمامًا ليس شعبًا تاريخيًا، إنما قوم (ethnos) أحد الشعوب أو الأمم الأخرى، التي وجدت فيما مضى في الشرق الأدنى القديم. إنه بالأحرى «شعب يهوه» المعرّف دينيًا. هذا الشخص الأدبي، إسرءيل أواخر العهد

الفارسي وأوائل العهد الهلنستي لم يوجد في أواخر القرن الثالث عشر. إنه ليس ولا يمكن أبدًا أن يكون المشار إليه في رُقَيْم مرنفتاح، الذي يحتوي إشارة ما إلى الحماية على فلسطين. لدى التأمل في الدراسات الأقدم عهدًا كدراسات غشتا آهلشتروم (Gösta Ahlström) ويوركو (yurco)[6] . يبدو من غير المقبول إلى درجة ما أن نميز بين شعوب رطنو ‹رطنو›، أو فلسطين، في أواخر القرن الثالث عشر، إلا على نحو جغرافي واقتصادي- اجتماعي. إن رُقَيْم مرنفتاح يعطينا أقدم استعمال مجازي لاسم 'إسرءيل'. وفهم تناقل وإعادة تقويم هذا الاسم، الذي يصادف مرة أخرى في النصوص الآشورية والآرامية في أثناء العهد الآشوري، هو المهمة التاريخية ذات الأهمية، وليس محض تسجيل لأول حدوث في الإيمان الأعمى، إن الاسم هو مرادف للربوبية.

إن الإشارة إلى ‹خفيرو/ عفيرو› رسائل العمارنة، وإلى ‹فلسط› النصوص المصرية، والإشارات إلى (كناخي/ ‹كنءخي›) العصر البرونزي واسم أرض‹ءمورو / عمورو› تثير أسئلة مشابهة. فكلها أسماء باقية في حكايات التراث ‹الكتابي› المتأخر كثيرًا: كما العبرانيين والفلسطيين والكنعانيين والعموريين، لكن هذه أيضًا على نحو ما ليست تسميات إثنية للعصر البرونزي أو أوائل العصر الحديدي. ولاتبقي أي شرعية لتاريخية أو استمرارية تاريخية معروفة من خلال هذه الكيانات الإثنية الأولية (Proto-ethinc) للعهد الآشوري والعهد اللاحق. إن لدينا كل المسوغ للإقرار إن ‹خفيرو/ عفيرو› الوصفي العمارني لا يمكن أن يُماهى ب‹عبريم› الاسم القبلي (Gentilic) في الحكاية ‹الكتابية›[7].

مع ذلك، إنه سؤال تاريخي مشروع أن نسأل كيف يُشتق الاسم الكتابي بعد قرون من المصطلح ‹خفيرو/ عفيرو›، وأن نشك في سيرورة إعادة التقويم المتضمنة. على نحو مشابه، فإن الاسم الجغرافي ‹فلشطو› في النصوص الآشورية أو الفلسطيين الأسطوريين في الحكاية ‹الكتابية› ليسا مطابقين لفلشت المهاجر

في النصوص المصرية للقرنين الثالث عشر والثاني عشر الأسبق، مع أن الأسماء الثلاثة كلها يمكن ربطها تاريخيًا بفلسطين هِرُدُت، التي تستخدم مصطلحًا جغرافيًا لسورية الجنوبية. مهما كانت رغبة المرء في ادعاء الاستمرارية التاريخية لشعب ما، فإن مرور القرون قد انطوى على تحولات جذرية. إن فلسط (ويمكن للمرء أن يفكر هنا أيضًا بالداناو وتجِكر [من "شعوب البحر"، ز م] في النصوص ذات الصلة) يمتلكون سياقهم التاريخي بين الغزاة أو المهاجرين إلى فلسطين، الذين يشار إليهم غالبًا بوصفهم 'شعوب البحر'. إن مصطلح فلسطيين، مع ذلك، يعود إلى سكان السهل الساحلي الفلسطيني الجنوبي ضمن التراثات الكتابية الأسطورية لشمشون وشاول وداود. مثل الكنعانيين في قصص أسفار التكوين ويشوع والقضاة، يأخذون دور العدو الخرافي في قصص أصل مملكة إسرءيل. إن المسألتين التاريخيتين للاستمرارية اللغوية والهوية هما مسألتان مختلفتان وينبغي عدم مناغمتهما. في حين أن استمرارية الأمم يمكن إثباتها، فإن العمل الأثري الكثيف عن السهل الفلسطي يوحي بالأحرى إلى أن السكان هنا هم أصليون، تأثروا على نحو مهم وازدادوا بفعل عناصر من بحر إيجة والمنطقة الساحلية الأناضولية. هذا الحكم قد لقي الدعم أيضًا عن طريق ما نعرفه عن لغة وديانة السهل الساحلي، الذي هو سامي غربي السمات تأثر كثيرًا بمصر مثلما تأثر بالعناصر الإيجية أو الأناضولية الأثرية.

إن المصطلح القديم كناخي [كنعان، ز م] أيضًا ليس إشارة إلى أي شعب تاريخي. إنه مصطلح جغرافي على نحو واضح، ويستخدم في الإشارة إلى شعب فقط كشعب كناخي. إنه لا يمتلك مدلولاً متسقًا يمكن تحديد هويته بفلسطين. إنه يتداخل مع مصطلحات جغرافية أخرى، مثل عمورو ورطنو[8]. ومع بعض الاستعمالات الكتابية المبكرة، فإن كلمة 'كنعاني' تقوم بوظيفتها مصطلحًا ازدرائيًا بالإشارة ليس إلى الإثنية أو حتى إلى شعب منطقة ما، بل إلى الطبقة التجارية من المجتمع، على نحو يتماشى كثيرًا مع التمييزات الاجتماعية كما هو

موجود ضمنًا في الإشارة العربية إلى البدو والفلاحين والمدنيين. في الورودات الكثيرة للاسم 'كنعاني' في التراثات الكتابية، فإن المشار إليه هم السكان الأصليين الأسطوريين لِ'أرض كنعان'، مع الإشارة إلى فلسطين. وهؤلاء غالبًا لا يمكن تمييزهم من الجماعات الأسطورية الأخرى، مثل العموريين واليبوسيين. المرة الأولى التي يستخدم فيها هذا المدلول معرف لذاته ذي دلالة إثنية هي في نص فينيقي متأخر، من دون الإشارة إلى فلسطين إطلاقًا[9].

في العهد الروماني، يستخدم حتى للإشارة إلى المتعصبين اليهود [اليهوذيين] المعادين للرومان.

إن المسافة الفكرية بين عالم اللغة والحكاية ‹الكتابيتين› والعالم التاريخي لفلسطين وسورية (حتى للعهد الآشوري) واضحة على نحو خاص في استعمال ‹الكتاب› لمصطلح 'عموري'، مع مدلول مماثل في بعض الأحيان لـ'كنعاني' وفي أحيان أخرى يكون مركزًا على إحدى الجماعات الأصلية للريف التلالي لفلسطين. مع ذلك، لم يعد ذلك يردد صدى الإشارات التاريخية لأواخر العصر البرونزي أو أوائل الألف الأولى إلى أرض (أمورو) في سورية أو إلى إشارات العصر البرونزي الوسيط إلى الأمورو كمصطلح عالمي للدلالة على 'الغربيين'[10].

إن أحد الأسئلة التاريخية المتعلقة بالاسم 'إسرءيل' الذي يتمخض عن هذه التشابهات إنما يرتبط بطبيعة إعادة التقويم الأدبي للنعوت والأسماء. ثمة حاجة للاعتراف بأن الصفة الإثنية الضمنية للمصطلح 'إسرءيل' يجري إنكارها بمقدار ما يجري ادعاء كونها شفافة وكيلة الوجود في ‹الكتاب›. إن استخدام الاسم يتركز في التفسير (الإيبونيمي) الفولكلوري لبني إسرءيل ‹بني يسرءيل› في القصص الأبوية، لكن يجب أخذ الحذر، قبل أن يترجمها المؤرخ إلى مدلول تاريخي، لأنه في ‹الكتاب› أيضًا، وعلى نحو أبرز في تراث

سفري الملوك وسفر الأنبياء، يعطي الاسم 'إسرءيل' دلالة مختلفة اختلافًا متميزًا، ليست إثنية بطبيعتها، لكنها تتضمن إشارة إلى الحماية التاريخية ل‹بيت عُمري› أو إسرءيل، الذي كانت عاصمته السامرة. إن الإشارات التاريخية التي تثبت هذا الاستعمال تأتي من نصوص العصر الحديدي التي ليست الكتابية (Extra-Biblical) من بلاد النهرين وفلسطين. من الواضح أيضًا بناء على التراث وتنقيح التاريخ، أن السيرورة التي جرت بموجبها مناغمة هذين المدلولين المستقلين جدًا (أحدهما أدبي والآخر تاريخي)، يمكن تعريفها بأنها إحدى المهام الفكرية المركزية لما يدعى التنقيح 'التثنوي' فيما بعد السبي (post-exilic) الذي أدى إلى الإطار الشامل للتراث، الذي بتنا نعرفه أخيرًا في سفر التكوين إلى سفر الملوك الثاني.

ليس تاريخ فلسطين مشمولاً بتواريخ مستقلة لمناطق مختلفة فقط، بل إن هذه التواريخ الإقليمية قد تأثرت تأثرًا قويًا بمجتمعات الحماية المتنافسة السائدة ضمن هذه المناطق. إن تميز هذه النزعة الإقليمية يمكن رؤيته في الأنواع المختلفة للاستيطان وتاريخه، التي وجدت بوادي يزرعيل والجليل والمرتفعات الممتدة من رام الله إلى نابلس وجبال نابلس والخليل. إن تاريخ هذه المناطق الأربع منذ أواخر العهد البرونزي إلى العهد الهلنستي يكتب على النحو الأفضل [انطلاقًا] من استراتيجية تعدها كيانات تاريخية متميزة. فتاريخ فلسطين وشعوبها مختلف جدًا عن حكايات ‹الكتاب›، مهما كان الزعم بعكس ذلك. إن التاريخ المستقل لمرتفعات نابلس والخليل للعصرين الحديدي الأول والثاني يمتلك متسعًا صغيرًا لأرخنة حكايا أسفار صموئيل والملوك.

من منطلق الذين يميزون الفرق بين التاريخ والتراث في فلسطين القديمة، فإن تحول وصف حملة الفرعون شيشنق على بلدات فلسطين الرئيسة، من روايتنا الأبكر لها في الدعاية المصرية المعاصرة، إلى الاستعمال ‹الكتابي› المتأخر

كثيرًا ومراجعة الهجوم جزءًا من سلسلة القصص عن نهب هيكل يهوه في أورسليم، هو الأكثر تنويرًا. لا يقدم نص المصريين أي إشارة إلى أنهم من نوع يهوذا الذي نعرفه من التراث الكتابي، لا بوصفه قومًا ولا بوصفه مرتكزًا في العاصمة الإمبراطورية في أورسليم[11]. في النص المصري، قاتل شيشنق البلدات الرئيسة لشمالي فلسطين، ووادي أيالون والنقب الشمالي، لكنه لم يقاتل شكيم أو ترزة أو أي يهوذا أو إسرءيل. لو كان بمقدور المرء أن يتجاهل التراث الكتابي في كتابة التاريخ، فإن حملة شيشنق تقدم مسوغاً كافيًا لفعل ذلك. ويختلف سفر الملوك الأول عن الرواية المصرية اختلافًا جذريًا، على النحو الأبرز بتوجيه الحملة إلى الولاء الديني لبيت داود وعلى أورسليم بوصفها مدينة هيكل يهوه والخزينة. إن صفات نوع أورسليم التي تنطوي عليها القصة لا تؤيدها المعطيات من خارج ‹الكتاب›، مهما كانت مقنعة الأسباب التي يمكن أن تقدمها للحكاية ذات الصلة بشأن برنزة [في النص ‹الكتابي› نحاس؛ ز م] يربعام لدروع سليمان الذهبية (الملوك الأول 14: 25–28). لا نعرف شيئًا عن هذه الأورسليم أو الهيكل في هذه الفترة المبكرة. إن سفر الملوك الأول يعرف بالتأكيد شيئًا ما من الماضي التاريخي، أي أن شيشنق قام بحملة إلى فلسطين، لكن إعادة التصور لا تتأيد بإلحاق نص مصري متميز شديد المعاصرة للحملة بما نعرفه أنه موضوع جدال ديني بعد قرون من ذلك[12]. من الواضح أن سفر الملوك يستخدم معرفة النصوص المصرية في سعيه لخلق ماض مجهول إلى درجة كبيرة لأورسليم. إن شيشنق في الماضي الحقيقي المجهول قد يكون وقد لا يكون هاجم مدينة أورسليم، التي قد تكون وجدت أو لا تكون وجدت في ذاك الوقت، مع هيكل أو من دونه. مع ذلك، فإن المرء لا يكتب التاريخ على أساس المجهول، مهما كان سارًا. علاوة على ذلك، لا يستنبط المرء أي معنى من النص المصري القائل: إن حملة شيشنق موجهة ضد الدول الإقليمية في المرتفعات[13].

في الواقع إن اختلاق إسرءيل التراث تفسيرًا للماضي هو بدافع من الماضي وردٌّ فعل عليه. مع ذلك فإن هذه السيرورة الأدبية، الإبداعية، مهما تكن تخيلية، ليست خيالية بحكم طبيعتها. إنها بالأحرى تعكس إدراكًا إبداعيًا أوجد إسرءيلاً تاريخيًا كإثنية ناشئة واعية لذاتها: أمة في سياق تعدد الأمم في الإمبراطورية الفارسية. إن الماضي المحشور في تراثات إسرءيل، الذي بلغته تلفق الوحدة الإسرءيلية وتقيم زعمها على عالمنا الحاضر لا يجري اختلاقه 'من قماشة واحدة'، بل هو على نحو خاص رؤية للتماسك، وإعادة تفسير للنتف والذكريات الكثيرة لماض مبعثر[14]. حتى عندما لا يمكن دمج طبيعة وتطور الجماعات السكانية المنفصلة في مناطق يهوذا والسامرة والجليل في العصر الحديدي مع فرضيات كونها قد نشأت من شعب 'إسرءيل' واحد، فإن عجز البحث التاريخي عن تحديد هوية شعب يهوذا وأورسليم من أوائل القرن السادس سواءً من الشعوب الأخرى الكثيرة في المرتفعات والمناطق الأخرى من فلسطين، الذين دخلوا في المنفى منذ بداية العهد الأشوري في القرن التاسع عشر وحتى وقت متأخر كالعهدين الفارسي والهلنستي. ولا يمكن تمييزها من الشعوب التي جاءت من بلاد النهرين والمناطق الأخرى من الإمبراطورية واستوطنت مناطق أورسليم وأماكن أخرى في المرتفعات عبر هذه الفترة الزمنية نفسها. واحدة من المشكلات الأساس لأي شخص يرغب في مناغمة تاريخ فلسطين مع العقيدة الكتابية، حيث يكون مجازا 'العودة' و'المنفى' هما الشكلان الأدبيان السائدان لتحديد الهوية. هذه المشكلة لوحدها تجعل أي سؤال عن الإثنية في مشكلة فلسطين سؤالاً معقدًا.

هل إن الإنكسارات المتعددة واسعة النطاق، المتضمنة في إعادة النظر في إسرءيل التاريخي للتراث الكتابي في التاريخ ما قبل السبي الأكبر لفلسطين، يجعلها عديمة الفائدة لإعادة التصور النقدي لما قبل تاريخ إسرءيل؟. مع أنني مدرك للشك الملحوظ في مثل هذا المشروع، فإنني أشعر أن مستقبل

البحث التاريخي وفق هذه الخطوط هو مستقبل واعد على نحو استثنائي، نظرًا للإدراك الواعي لطبيعة الإنكسار من التراث إلى التاريخ الذي يحدث. إنني استخدم مصطلح (ما قبل تاريخ إسرءيل) في الإشارة إلى مجمل العهد ما قبل الهلنستي. إنني استخدمه بحكمة وبلا تردد. فنحن لا نورط أنفسنا (في تاريخ أصول إسرءيل) مع العالم الأكبر لتاريخ فلسطين فقط، بل إننا أيضًا نتعقب تلك العناصر ضمن تاريخ فلسطين التي ظهرت أخيرًا في أثناء العهد ما بعد السبيي كيانًا يجد هويته 'إسرءيل' التراث، مهما كانت تخيلية. إذا كان هذا الإسرءيل امتدادًا تاريخيًا لإسرءيل سبيي أو افتراضي أم لإسرءيل قبل السبي، سؤال يجب ألا يستبعد كليًا منذ البداية. مع ذلك، لا يمكن الإجابة عليه إلا في ضوء ما قبل التاريخ هذا. إن الاستقصاء التاريخي يجب أن ينطلق أساسًا من الأدلة: من المعلوم. إن تراثات العودة الكتابية قد تتضمن هجرات فارسية متأخرة أو هلنستية إلى فلسطين من بلاد النهرين ومصر، لكن، هذه الهجرات، وإن كانت تاريخية، لا تقتضي ضمنًا أننا نتعامل مع أناس أرسلهم البابليون إلى المنفى [السبي] في القرن السادس. إنها تقتضي بالأحرى أن التراث قد أفاد قصة محددة للربوية لهذه الجماعات، كلما وحيثما هاجرت[15]. إن المخطط الأول هذا لما قبل التاريخ يعتمد اعتمادًا شديدًا على الحجة الأكبر التي أطلقتُها في دراستي الأشمل في عام (1992)[16]. إن التطورات في البنية والاستراتيجية لتاريخ إسرءيل وفلسطين كانت محدودة إلى أقصى درجة على مدى العقد المنصرم[17].

آمل أن يعطيكم ذلك فكرة عما أعنيه بهذا الذي قبل تاريخ إسرءيل وربما أيضًا، بعض الأساس للحكم على فوائد مثل هذه المقابلة لمشكلاتنا، لا توجد بالتأكيد أي مشكلة مع كتابة ما قبل تاريخ فلسطين: الشرقية أو الغربية على درجة سواء. على الخصوص وعلى مدى الثلاثين عامًا المنصرمة كان التقدم في هذا الاتجاه هو الأسرع. يحتاج المرء فقط لأن يضيف جيران إسرءيل مكونات لتاريخ فلسطين. إن تاريخ فلسطين كله، المنظور إليه بهذه

الطريقة، يبدو لاإشكاليًا ومسنودًا على نحو فاعل عمومًا من قبل معظم الباحثين والأثريين[18]. إن تاريخ إسرءيل ينطوي على مشكلات أخرى، غالبًا أدبية وعقيدية، تتعلق بطبيعة إسرءيل وخصوصًا إسرءيل الشعب، القابل للتعريف بإسرءيل ‹الكتاب›. إن معظم النقاش التاريخي قد تغلَّب بصعوبة على التحديات النقدية للتاريخية الكتابية، وحتى أن القليل منه قد غامر بأكثر من الاستكشاف الأكثر تجريبية لتاريخ مرتفعات فلسطين الغربية، من دون أن يعد قصة ‹الكتاب› نموذجًا إرشاديًا هاديًا. على سبيل المثال، لقد صحح إسرائيل فنكلشتاين (Israel Finkelstein) هذا التوجه الإثني المغلوط في عام (1988)، لكن أحدث أعماله لا يمتلك تاريخًا للمرتفعات الشمالية بعد عام (722 ق ت ش) ويرتد عمومًا إلى مناغمة منظمة للأثريات والكتاب[19]. لهذه الأسباب التي تتسم بالتعقيد فقد أكدت تأكيدًا واعيًا المشكلة بوصفها مشكلة بشأن تاريخ إسرءيل الشعب ونظرت إلى هذه المهمة على أنها مختلفة تمامًا عن تاريخ فلسطين مع أنها تشمله.

ليس على نحو اعتباطي تمامًا أبدأ تاريخ أصول إسرءيل بأصل اللغات السامية. إن هذه، كما أظن، ليست نقطة انطلاق مبكرة بما يكفي فقط، وليست قضية اللغة جزءًا أساسًا من أي نقاش عن أصول الشعوب فقط، بل إنها أيضًا تنعكس على أحد الشذوذات، الذي نادرًا ما يناقش، لكنه الأكثر سطوعًا للنماذج الإرشادية المنهارة الآن لتاريخ إسرءيل: إنها العلاقة المتأصلة للغة العبرية بشعب إسرءيل. مهما يمكن أن يقال عن الشعب الذي أصبح إسرءيل، فإن لغته لها جذور في فلسطين وتاريخ فلسطين. إن إحدى نقاط قوة بديل (ألبرشت–ألت/ Albricht-Alt) عن «نموذج الغزو» لمدرسة أُلبرَيْت (Albright) المبكرة هي فرضيته القائلة: إن أصل إثنية إسرءيل كان عامل التوطن. وكانت تقوم جزئيًا على الفرضية المؤسسة جيدًا للألسنية التاريخية القائلة: إن التمايز إلى لهجات ولغات مختلفة هو نتيجة لقيود التواصل في المجال

الجغرافي الذي يكون أوضح على نحو متميز بين الجماعات المتوطنة[20]. ثمة تأملات أخرى تضاف إلى جاذبية التفسيرات الأهلية لأصول إسرءيل مثل تأملات مندنهول (Mendenhall) أو نورمان غتفالد (Gottwald) أو فنكلشتاين[21]. بالتأكيد إنه أحد الأسباب في أن الفرضية قد حققت مثل هذه الشعبية التي لا تستحقها[22]. إن تنويع مارتن نوث (Martin Noth) على هذه الفرضية، الذي يتضمن نظرية عن (الآراميين الأوائل/ Proto-Arameans)[23] قد استند إلى القناعة الرومانسية بأن اللغة العربية كانت السبيل الأجدى لإعادة تصور (السامية الأصلية/ Ursemitisch) وهي قناعة أشاعها مُسكاتي (Moscatti)، الذي شرحها بفكرة بدو الأرض الجائعين الذين ينبعثون كما لو بقدرة ساحر من الرحم الخصيب لشبه الجزيرة العربية[24].

اليوم، على المرء أن يبحث في مكان آخر عن أصل اللغة السامية. إننا، على الخصوص، بحاجة لأن نسلط الضوء على زوال 'الصحارى الخضراء' والتحولات المناخية منذ (6000–4000 ق ت ش)، التي أدت إلى تمايز اللغات الأفروآسيوية إلى لغات بربرية وتشادية، ومصرية وسامية[25]. ففي وقت يعود إلى حوالي (4000 ق ت ش) فصل اتساع الصحراء اللغة المصرية عن اللغتين التشادية والبربرية غرب نهر النيل. إن امتداداته إلى الشرق والشمال الشرقي قد فصلت إفريقية عن آسيا. لقد دعم هذا الاستقلال تطور اللغة السامية من اللغة المصرية. لقد وجد نشوء لغة سامية متميزة موطنه في اندماج المهاجرين الأفروآسيويين مع سكان المشرق الأصليين في العصر الحجري الحديث المتأخر. مع التوطن المتزايد المدعوم بأنماط الطقس المطري الثانوي في النصف الثاني من الألف الرابع وأوائل الألف الثالث، فإن 'السامية الأصلية' لسورية–فلسطين قد تجزأت من دون شك إلى التجمعات الاقتصادية الإقليمية الفرعية المميزة للالعصر البرونزي المبكر.

إن نهاية هذا الازدهار المطري الثانوي، الذي يستدل عليه بتدهور أوائل

العصر البرونزي الثالث، وتميز ببدء العصر البرونزي الرابع الذي يمكن إعادة تاريخه ربما إلى القرن (24 أو 23 ق ت ش)[26]، قد تسبب في نزوحات وتغيرات إقليمية متنوعة انعكست في التوغلات السامية في العالم السومري المؤدية إلى الظهور المبكر للأكادية، والانهيار التدريجي للزراعة في المشرق الجنوبي، وتطوير استراتيجيات معيشة هناك موجهة على نحو متزايد نحو الرعي (Pastorals)، نشرت السكان في سيرورة الترحل (Desedentarization) فوق مساحة أكبر على نحو متزايد، لتصل في نهاية الألفية جنوبًا إلى النقب وسيناء، وشرقًا وجنوبًا إلى شمالي شبه الجزيرة العربية عبر نهر الأردن، وشمالاً غربًا إلى جبل بشري، لتصل في النهاية إلى نهر الفرات. وفي مصر تنعكس هذه الشدة المناخية في نصوص العصر الوسيط الأول[27].

مع العودة إلى شروط أكثر ملاءمة في أوائل الألف الثاني، بدأت فلسطين تطور نمطًا من التوطن الكثيف على غرار الاقتصاد المتوسطي لتربية الماشية وزراعة الحبوب والمحاصيل الحقلية، والبستنة، الذي بلغ في نهاية القرن الثامن عشر قبل التأريخ الشائع ازدهارًا لا مثيل له في تاريخها[28]. لا ينبغي على المرء أن يفترض، مع هذه العودة إلى الازدهار، أن اقتصاد البداوة الرعوية قد اختفى مع العودة إلى الزراعة وغلبة التوطن. إن ازدهار الموئل قد وجد جنبًا إلى جنب مع ازدهار في الأراضي السهبية (Steppeland)، وبلغة تطور الأسواق والاعتماد على الرعي والزراعة الرقعية (Patch agriculture) يمكن للمرء أن يفترض استقرارًا زائدًا للاقتصاد الرعوي في أنماط الهجرة الموسمية (transhumance). إن الدليل محدود وهش، ولكن يمكن للمرء أن يشير إلى قصص إدرمي وسينوحي[29]، إضافة إلى الإشارات المسمارية إلى ‹شوتو› وارتباطاتها المحتملة ‹شصو› بنصوص المملكة المصرية الجديدة[30]. فكلاهما يقدم تشابهات إقليمية مع [لغة] عمورو الرعوية على نحو غالب لجبل بشري وللأدب المسماري عمومًا[31]. كان الاقتصاد والسلطة السياسية لفلسطين في العصر

البرونزي الوسيط متركزين في البلدات المحصنة، التي طورت نمطًا، مع أنه غالبًا ما يدعى «دول المدن»، فهو يقوم بالأحرى على حُماة مهيمنين إقليميًا، يؤمِّنون الحماية. هؤلاء كوَّنوا نواة المجتمع، وأصبحوا مميزين لفلسطين منذ زمن (نصوص اللعن/ Execration Texts) على الأقل وحتى عصر العمارنة، واستمرت طوال فترة العصر الحديدي. إن البقايا المادية–الثقافية لفلسطين تعكس نفوذًا مصريًا ملحوظًا في الجنوب ونفوذًا سوريًا في الشمال. إنني أرى هذه التأثيرات تعكس هيمنة التجارة بمقدار ما تعكس كثيرًا من الهيمنة السياسية أو العسكرية. بالنمط نفسه، فإن نهاية العصر البرونزي الوسيط وبداية العصر البرونزي المتأخر تتجه فلسطين إلى قبرص وبحر إيجة في توسيع الأسواق والتجارة.

تتسم نهاية العصر البرونزي الوسيط (C II) بانهيار ملحوظ للتوطن، ومعه انهيار الزراعة[32]. ففي مقابل بدء العصر البرونزي الرابع المبكر، يتسم الكساد الاقتصادي والديموغرافي الذي يميز نهاية العصر البرونزي الوسيط بانهيار إقليمي فرعي، إضافة إلى الهجر الطويل الأمد للقرى والمزارع الصغيرة في كل أنحاء فلسطين. إن مقدارًا من الازدهار يبقى مصانًا في البلدات الكبرى للمنخفضات، والوديان الجبلية الكبرى للمرتفعات، لكن ثمة هبوط محتوم في حجم الجماعات السكانية المدعومة من قبل هذه المستوطنات وفي قدرتها على الاحتفاظ بالقرى الأصغر حجمًا المترامية. إن الانعزال الزائد لبلدات فلسطين يعكس ليس فقط التغيرات في أنماط الاستيطان، بل من المحتمل أيضًا أنه سرع التمايزات اللغوية الربجاتية، كما لوحظ في بعض الأحيان في (رسائل تل العمارنة)، وخصوصًا في تلك الواردة من أورسليم. ربما ازدادت الحياة الرعوية في المرتفعات نتيجة لتحويل الاقتصاد عن الزراعة التكثيفية، فيما تطور في نهاية المطاف إلى انهيار الاستيطان في كل أنحاء المنطقة في المرتفعات الوسطى وتلال الخليل، وفي أماكن أخرى. تشير كثير من نصوص العصر البرونزي المتأخر

إلى رعاة ‹ش ءصو› من المرتفعات الوسطى يذهبون إلى مكان بعيد مثل إدوم الجنوبية. يمكننا أيضًا أن نفهم النمو الملحوظ للأشخاص المرحلين كأولئك الذين ورد ذكرهم في رسائل تل العمارنة بوصفهم خفيرو/ عفيرو الذين بقوا على قيد الحياة قطاع طرق ومرتزقة، وعمالاً مستأجرين وعبيد.

إن تدهور الاقتصاد والحكم الفلسطينيي قد مهد الطريق بالتأكيد لخضوعها للمطامح التوسعية للإمبراطورية المصرية، المندفعة شمالاً بجيوش تحتمس الثالث، جاعلة فلسطين قاعدة انطلاق للتوغلات في سورية والمواجهة النهائية مع الحثيين. على كل، إن الإمبراطورية المصرية أيضًا قد عززت التجارة وحافظت على الازدهار في البلدان. إن السيطرة الإمبراطورية المصرية على فلسطين في أثناء العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي المبكر لم تستغل فلسطين لأجل مواردها كالخشب والزيت والقمح واليد العاملة فقط، بل أيضًا قد منحت مصر ميزة جغرافية-سياسية في منافستها مع العالم الحثي، فخلق الوجود المصري استقرارًا في المنخفضات الفلسطينية، وحفظ بعض الازدهار في هذه المناطق حتى القرن الحادي عشر، وسط اقتصاد متدهور من نواحٍ أخرى.

إن بدء الجفاف الميقيني في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، الذي بلغ ذروته في حوالي (1200 ق ت ش)، واستمر حتى حوالي (1000 ق ت ش)، كان له أثر مدمر في كل مكان من مجمل شرق المتوسط[33]. لقد شهدت نهاية العصر البرونزي المتأخر ليس فقط انهيار ميقينة، بل انهيار الإمبراطورية الحثية أيضًا في أثناء القرن الثاني عشر. مع ازدياد القرصنة في كل أنحاء البحر المتوسط اقتربت التجارة من الانهيار الكلي[34]. إن مراكز التجارة الكبرى مثل آلالاخ وكركميش وأوغاريت وقطنا وصيدا وتل أبو هوان لم تُدمّر فقط، بل كان الكساد بالغ الشدة، حيث إن هذه المجتمعات الصغيرة، حتى ذاك الوقت، المزدهرة والمعقدة، كان لديها القليل من التكيف والقدرة على إعادة البناء[35].

في هذه الدمارات، التي امتدت إلى كثير من مدن منخفضات فلسطين في أواخر القرن الثالث عشر والقرن الثاني عشر قبل التأريخ الشائع، لا نتعامل مع صراع عسكري أو اقتصادي بين متنافسين مشتبكين، بمقدار ما نتعامل مع انهيار مجتمعي على نطاق المنطقة. وحدها القوة المصرية بقيت سليمة، ومع سلطتها وسيطرتها على فلسطين يبدو أنها قد خضعت لضائقة كبيرة ولا يبدو أنها كانت مهيمنة كثيرًا في زمن أبعد من فترة حكم رمسيس الثاني. كما تشير الدلائل من مصر وأوغاريت إلى أن المجاعة حدثت على نحو متفرق من مكان بعيد كالإمبراطورية الحثية في الشمال إلى حدود مصر في الجنوب. بدأ الجفاف في وقت مبكر يعود إلى منتصف القرن الثالث عشر، ولا بد أن الأزمات قد زادت في أثناء القرن الثاني عشر، عندما استمر تدهور الاقتصاد وشبكات التجارة.

لابد أن أعداد اللاجئين والمرحَّلين كانت كبيرة. والغارات البحرية على الساحل الشمالي لسورية والساحل الصقلي المعروفة منذ وقت مبكر يعود إلى نهاية القرن الثاني عشر قبل التأريخ الشائع، واصطدمت 'شعوب البحر' لأول مرة في نزاع مع مصر في أثناء حكم مرنفتاح. تذكر (بردية هاريس) والنقوش النافرة من مدينة حابو هجمات عن طريق البر والبحر في العام الثامن من حكم رمسيس الثالث. وادعاء المصريين الانتصار والغزو الكلي لشعوب البحر، التي يذكر من بينها الفلسط وتجكر، يجب تعديله عن طريق الإشارات التي توحي إلى أن المصريين في الحقيقة قد سمحوا للغزاة بالاستيطان في الأراضي المصرية وزودوهم بالطعام واللباس. بعض هؤلاء "الغزاة" يوصفون على نحو ما عائلات، جالبين أمتعتهم المنزلية معهم. علاوة على ذلك، فإن الهجرة برًا ربما لم تتجاوز أبعد من فلسطين الجنوبية، نظرًا لأن خط دفاع رمسيس كان في (أرض جاهي/ جاحي)، أي أن فلسطين، وبعض 'شعوب البحر' هذه من الممكن تمامًا أن تكون قد استوطنت على طول الساحل الفلسطيني إلى الجنوب من الكرمل، المنطقة التي يضع فيها نص ون–أمون القرن الحادي عشر شعب

الجكر وتضع فيها التراثات الكتابية اللاحقة الفلسطيين. تشير النقوش في مدينة حابو إلى فلشت/ فلسط بأنهم «مختبئون في بلداتهم» ويشير غشتا آهلشتروم إلى نص يعود تاريخه إلى أربع سنوات لاحقة يزعم أن المصريين اجتاحوا 'أرض الفلسط' ، هذه النصوص تؤيد التفسير القائل إن انطلاق هجرة الفلسط والتجكر والداناو (الدنائيين) والجماعات الأخرى قد بدأ في وقت مبكر من القرن الثالث عشر وأن استيطانهم على الساحل الفلسطيني قد توطد تمامًا في وقت مبكر من القرن الثاني عشر.

ثمة أيضًا إشارات، بعيدًا عن فكرة الأسر وعربات الثيران في مدينة حابو، توحي إلى أننا نتعامل في فلسطين مع هجرة سلمية لهؤلاء الشعوب إلى فلسطين وليس مع هجوم عسكري. فليس الوجود المصري في فلسطين في الفترة الانتقالية من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي (حوالي عام 1200 ق ت ش) غير معرض للتهديد في المنخفضات الفلسطينية من غزة إلى بيسان، بل إن استيطان دور (خربة البُرج؛ ز م) وبناء مرفأ ما يدعم فكرة الهجرة السلمية من بحر إيجة والأناضول إلى الساحل الفلسطيني منذ نهاية القرن الثالث عشر قبل التأريخ الشائع على الأقل. إن التدمير الحاصل في العصر البرونزي المتأخر لعسقلان وأشدود يمكن أيضًا بصعوبة ربطه على نحو اعتباطي بالغزو التدميري لشعوب البحر[36].

إن الآنية الفخارية الميقينية (C III :1B) التي تدعى 'الأواني الفلسطية' تصادف في هذه المواقع فقط في القرن الثاني عشر. علاوة على ذلك، فإن هذه الآنية الفخارية، موازاة مع الأساليب المعمارية للمرفأ في مدينة دُوْر، توحي ليس إلى تغير جذري وترحيل للسكان، بمقدار ما توحي إلى اندماج المهاجرين مع السكان الساحليين الأصليين لفلسطين[37]. إن الآنية الفلسطية ليست استيرادًا ولا تحل محل الأشكال الفلسطينية. ولا يدل وجودها على طول الساحل وفي أماكن أخرى في فلسطين، منذ منتصف القرن الثاني عشر قبل

التأريخ الشائع فصاعدًا، على هيمنة شعوب البحر بين سكان البلدات التي توجد فيها هذه الآنية. إنها تدل فقط على اندماج صانعي الفخار المهاجرين مع الحرفيين الفلسطينيين.

إن انتشار هذه الآنية الفخارية عبر المنخفضات، في ‹يزرعيل› إلى وديان بيسان وفي أمكنة أخرى لا تعطي علامة على توسع ما تدعى بالسلطة الفلسطية، لكنه ليس أكثر من استمرار لوظيفة شبكة التجارة المصرية في المنخفضات. إن التغيرات التي تحدث على طول الساحل الفلسطيني في القرن الثاني عشر، مع كونها تتسم بهذا الدفق إلى سكانه، هي مشابهة للتغيرات التي تحدث في مناطق أخرى من فلسطين، حيث لا يوجد مؤشر على أن المهاجرين قد تغلغلوا من بحر إيجة والساحل الأناضولي أبدًا. إن الافتراض القديم لوجود شعب فلسطي متميز إثنيًا على طول الساحل الجنوبي لفلسطين في أثناء العصر الحديدي المبكر يبدو بلا أساس. فالفلسط، مثل كثير جدًا من الجماعات المهاجرة الأخرى منذ العصر الحجري الحديث، اندمجوا بالكامل في السكان الأصليين. إن البنى السياسية للسهل الساحلي المتركزة حول البلدات في أثناء العصر الحديدي الأول، كما في أمكنة أخرى في المنخفضات، قد واصلت تقليدًا كان مستمرًا منذ العصر البرونزي المتوسط. وقد امتد احتلال البرونز المتأخر لتل مقنة (عكرون) من دون انقطاع إلى العصر الحديدي الثاني. إن المؤثرات الأيجية على طول الساحل الجنوبي لفلسطين كثيرة، ولا شك في أن الهجرة قد أثرت على السكان في الساحل. إن التحديد الإثني والسياسي لهوية هذه المنطقة بأنها فلسطية هو مغالطة زمنية حديثة، نسخة مؤرخنة من أساطير إبراهيم وشمشون، وشاول وداود.

إن الانهيار الاقتصادي الذي سبَّبه بالجفاف، الذي هجرّ كثيرين على امتداد شواطئ البحر المتوسط الشرقي، قد أثر على كل فلسطين. ففي مناطق كثيرة، كانت التغيرات أكبر حتى من تلك التغيرات على طول الساحل[38]. ففي

سهل ‹يزرعيل›، كما عبر منخفضات المنطقة المتوسطية الشمالية من فلسطين وقعت الزراعة التوطنية للبلدات الكبرى تحت محنة شديدة، ويجد المرء تدهورًا ملحوظًا في حجم السكان وفي بعض الحالات إفقارًا شديدًا، يبدأ قبلئذ في آخر مستويات العصر البرونزي المتأخر. على مدى قرن تقريبًا، في حوالي (1200 ق ت ش) يجد المرء مستويات تدمير في مواقع كثيرة، يليها إما هجر أو إعادة بناء على مستوى "بدائي" جدًا، وهذا ما يوحي إلى عدم استقرار كبير. بعض البلدات كانت قادرة على الحفاظ على مستوى متواضع من الازدهار والإدارة حتى القرن الحادي عشر، ما يعكس بعض الدعم المصري المتواصل. إن إنشاء بعض القرى والمزارع الصغيرة الجديدة في أثناء أوائل العصر الحديدي الأول في المنخفضات إنما يوحي إلى انتقال اقتصادي من المحميات المركزية للعصر البرونزي المتأخر، على نطاق أوسع. لقد جرى استغلال مساحة زراعية أكبر على نحو متزايد من قبل عدد سكان إجمالي آخذ في التناقص. هذه علامة على الكساد الزراعي وليس على العودة إلى الازدهار الاقتصادي. إن هذا التشتت للسكان وفتح أراض جديدة أيضًا قد دفعا المستوطنين إلى مناطق المرتفعات، التي كانت قد هجرت إلى درجة كبيرة في أثناء العصر البرونزي المتأخر[39]. ففي الجليل الأعلى، يبدو أن عددًا محدودًا إلى درجة ما من القرى والمزارع الفقيرة جدًا من الناحية المادية قد أنشأها اللاجئون أو المرحلون من الساحل الفلسطيني الشمالي والفينيقي، انطلاقًا من قدور الطهي والوجود الكلي للجرار الجليلية أو الصورية (نسبة إلى مدينة صور)[40].

لم تمتد المستوطنات الجديدة إلى الجليل الأسفل ولم تنتشر عبر المنخفضات إلا بعد عام (1050 ق ت ش)، لكن من الواضح أن ذلك جرى مع بداية العصر الحديدي الثاني. ثمة نمو ملحوظ في حجم كثير من المواقع، التي كانت قد استوطنت أساسًا في أثناء العصر الحديدي الأول. هذا ملحوظ على نحو خاص بين البلدات الكبرى، التي كان احتلالها مستمرًا منذ العصر البرونزي

5) استخدام التاريخ ذريعة للاستيلاء على الأرض* (نيلز لمكة)

منذ أكثر من عشرين سنة كتبتُ مقالة لمجلة دنماركية جديدة في التاريخ الديني عن "الوطن التوراتي"، لم تنشر بأي لغة أخرى، ولدى القراءة الثانية لهذه المقالة بدا من المذهل أن الأحوال لم تتغير إلا قليلاً، إلا أن مناخ النقاش قد أصبح في العقود الأخيرة أكثر كرهًا .

أقدم فيما يلي ترجمة لهذه المقالة وأضمّنها في النهاية موجزاً للتطورات ذات الأهمية التي طرأت على الموضوع منذ ذلك الوقت . كانت تلك التطورات لافتة للنظر من خلال الدراسة التوراتية، لكنها كانت لافتة للنظر بمقدار مساو في المجال السياسي .

5/ 1) مقدمة قصيرة

ليس هذا نقداً للفكر الإسرائيلي الحديث، مع أني ضمّنت نقداً لواحدة من قواعد الصهيونية الحديثة، ويمكن عدُّ هذا النقد ينطبق على التفكير الأكثر حداثة وينطبق أيضًا، بدرجة لا تقل عن ذلك، على أوربة التي خاضت في القرن الماضي حربين ارتكزتا على فلسفة مشابهة.

@NoorAlbersi_Library
Tele: Intellectualrevolution

5/ 2) الذريعة التاريخية

> كان اليهود أول سكان في فلسطين يجلبون معهم الحضارة إلى هذه البلاد. وقد أصبحوا جزءًا من هذه البلاد وحكموا فترة أطول بكثير من أي حكام جاؤوا بعدهم. وفي أثناء هذه الفترة أنشؤوا دولتهم الخاصة في فلسطين، وهي الدولة القومية الوحيدة التي وجدت في فلسطين في أي وقت. لقد طوروا البلاد سياسيًا واقتصادياً وثقافياً . وفي أثناء هذه العملية تأثروا بالبلاد وأصبحوا أمة تحمل طابعها الخاص المميز.

اقتبسنا هذه الفقرة من ورقة نشرتها في عام (1946) الوكالة اليهودية في فلسطين (الممثل الرسمي لليهود في أثناء فترة الانتداب البريطاني في فلسطين بين عامي 1917 و1948)، وقد كانت تقريرًا رسميًا موجهًا إلى سلطات المحمية البريطانية. كانت هذه النشرة حجة تدعم المطالب اليهودية في فلسطين. وتمثل علامة فارقة واستغلالاً غير عادي للعهد القديم وجزءًا من النقاش السياسي العلماني في منتصف القرن العشرين.

في نيتي أن أقدم، في هذه المقالة، تقويماً لقانونية هذا الاستخدام لمعلومات العهد القديم. ومن الممكن على نحو مساو أن يمثل هذا التسويغ إساءة استعمال المعرفة العلمية (هنا التاريخية). ولا يمكن أن يكون هناك أي شك أن إسرائيل تستغل العهد القديم استغلالاً واسعًا كجزء جوهري من التسويغ الذاتي لقانونية وجودها "دولة إسرائيل" . ويمكن أن تتوضح هذه النقطة من أقوال أخرى مقتبسة من النشرات شبه الرسمية من مستوى يعادل مستوى نشرة الوكالة اليهودية التي اقتبستُ منها الفقرة أعلاه. وفي الوقت ذاته ليس جميع أجزاء المجتمع الإسرائيلي سيؤيدون هذا النوع من التسويغ. ونادرًا ما تجد الدوائر الدينية المحافظة ضمن المجتمع اليهودي مسوغاً سياسيًا علمانيًا على درجة كبيرة من الإقناع. لكن الأقوال المقتبسة قد تكون تمثيلاً لموقف الناس

الذين أوجدوا الدولة الإسرائيلية والناس المتعاطفين مع قضيتها، من العهد القديم كوثيقة سياسية.

وقد لا يكون المثال التالي من الأدب، بل من خرائط لإسرءيل نشرتها دار النشر كارتا (Carta) في القدس في عام (1974 ت ش). إضافة إلى مقدمة قصيرة، هذه المنشورة مكونة من سلسلة من الخرائط تبين حدود إسرءيل في فترة المملكة (بين عامي 1000 و 600 ق ت ش) وفي فترة ما بعد السبي (بين عامي 500 و 300 ق ت ش) والفترة الهيلينستية الرومانية (بين عامي 300 ق ت ش، و 300 ت ش) وحتى العصور الحديثة. وقد يكون مشروع كهذا معقولاً، مع أن بعضهم قد يفكرون باستخدام مشابه للخرائط في التاريخ الأوربي الحديث ولم يكن ذلك مفيدًا إلا نادرًا [المقصود هنا استخدام النازيين خرائط تاريخية. ز م].

لكن الخريطة التي تبين حدود إسرءيل في فترة المملكة غير أكيدة. وقد جرى رسم تلك الخريطة على نحو رئيس على أساس حدود امبراطورية داود كما وصفها العهد القديم، التي شملت أكبر مقدار ممكن من الأراضي. كما نجد على خريطة إسرءيل هذه، إضافة إلى فلسطين، سوريا الغربية والقسم الصالح للزراعة من المملكة الأردنية الحالية، والجزء الجنوبي من لبنان وصولاً إلى صور، والجزء الشمالي من شبه جزيرة سيناء حيث تسير الحدود من العريش في الشمال الغربي إلى إيلات في الجنوب الشرقي. تؤلف هذه الخريطة أساس المناقشة التالية عن "حق إسرائيل في حدود آمنة"، مع أن الخريطة تبيّن مملكة لم تدم أكثر من (40) عامًا في أحسن الأحوال، في زمن الملكين داود وسليمان في القرن العاشر قبل التأريخ الشائع. وحتى في تلك الأيام كانت المملكة الإسرءيلية على نحو ما تضم جميع الأراضي التي كانت تعدُّ إسرءيلية في هذه الخريطة. وقد فُقد معظمها بعد جيل واحد في أحسن الأحوال، وتقلصت الأراضي الإسرءيلية، التي كانت وقتها مقسمة بين

مملكتي إسرائيل ويهوذا، إلى حجم شبه جزيرة جوتلاند (Jutland) الدنماركية.

من مقدمة هذه المجموعة من الخرائط نقتبس الفقرة التالية:

> يعود تاريخ إسرائيل في الشرق الأوسط إلى منشأ التاريخ المدوّن. وهي البلاد الوحيدة في هذه المنطقة التي يعيش شعبها في المكان نفسه، ويتكلم اللغة نفسها، ويحتفظ بتقاليد وذكريات يعود تاريخها إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام. وهذه البلاد، تحت القانون اليهودي والحكام اليهود، كانت قادرة على الاحتفاظ بشخصيتها الخاصة ووحدتها الجغرافية. ولقد هزمت وُهزمت لا أقل من أربع عشرة مرة على مدى ثلاثة عشر قرنًا. ولم تكن أي هزيمة، ما عدا الاستثناء الوحيد الذي دام فترة قصيرة في أثناء الحكم الصليبي، تعني أن البلاد تحكمها قوات من أصل وطني. وفي هذه الفترة (بين عامي 135 ق م، و1948 م)، مع أن اليهود أُجبروا على العيش في الشتات، فقد احتفظوا بعلاقة لم تنقطع مع وطنهم، استمرت أجيالاً، يصلّون فيها من أجل خلاص هذا الوطن ويحتفلون بمواسمه ويتذكرون خريطته ومعالمه الجغرافية. وكوحدة مميّزة، يعود تاريخ هذه البلاد إلى العصر التوراتي.

يجب ألا تبقى هذه الفقرة وحيدة. بعض الفقرات الأخرى قد توضح النقطة المثارة هنا. ويمكن اختيار تلك الفقرات عشوائيًا وهي على كل حال تلقي الضوء على الموضوع. الاقتباس الأول مأخوذ من نشرة أصدرتها السفارة الإسرائيلية في كوبنهاغن عنوانها: (الصراع العربي الإسرائيلي/ Den arabiske Israelske konflikt). ومع أنها من دون توقيع، فقد كان من الواضح أنها بقلم وزير خارجية إسرائيل السابق أبا إيبان. وفي الفصل الذي يحمل عنوان (إلى من تعود ملكية البلاد؟)، يتحدث المؤلف عن حكم إسراءيل [كذا] لفلسطين الذي دام من عام (1447 – 587 ق ت ش)، وعن الحكم

الذاتي الإسرءيلي في زمن الاحتلال الأجنبي، تحت الحكم الفارسي واليوناني بين عامي (540 و 163 ق ت ش)، وتحت الحكم الروماني و البيزنطي من عام (37 ق ت ش – 637 ت ش). وهذه فترة طويلة لم تنقطع إلا مرة واحدة في فترة استقلال يهودي دام من عام (136 – 37 ق ت ش).

يضاف التعقيب التالي إلى هذا الموجز التاريخي:

> من المؤكد أن "عرب فلسطين" لم يحكموا أبدًا فلسطين. وقد دام حكم الخلفاء، وهو حكم إسلامي أجنبي، مدة (435) عامًا بينما دام الحكم اليهودي في فلسطين حوالي ألفي عام. كان السكان في هذه البلاد يتألفون من جنود الاحتلال وعبيدهم. ولم يُجبر هؤلاء السكان ذوو العناصر العرقية المتعددة على الدخول في دين الإسلام والتكلم باللغة العربية إلا في أثناء الحكم العربي لهذه البلاد، وإلا فإنهم يموتون بحد السيف. في الواقع كان اليهود الوحيدين الذين نجوا من سكان فلسطين الأصليين الذين احتفظوا بعلاقة لم تنقطع مع البلاد في فترة التاريخ المدوّن.

المثال السابق مأخوذ من مساهمة العضو السابق في البرلمان الدنماركي أرنِ ملشيور (Arne Melchior) من كتاب نشره بالتعاون مع سفند هولم-نيلسن (Svend Holm-Nielsen).

وفي المقطع المعنون (الحق التوراتي) يكتب ملشيور:

> يجب النظر في مسألة من له الحق في إسرائيل/ فلسطين على الضوء التاريخي (بما في ذلك الضوء التوراتي التاريخي)، وأن يجري فهمه في ضوء القانون الدولي. فحالة إسرائيل لا مثيل لها في مسار تاريخ الإنسانية. كانت فلسطين مدة (1300) سنة، حتى هدم الهيكل الثاني (70 م) موطناً لدولة يهودية وأنبياء وملوك يهود. وبعد ذلك التاريخ

طردت الغالبية العظمى من شعب هذه الدولة. لكن بقي سكان يهود، وفي بعض المدن والمناطق كانت لا تزال هناك غالبية من اليهود.

وفي الفصل نفسه:

لكن لم يترك أحد أثرًا دائمًا في هذه البلاد كما ترك الشعب، شعب إسرءيل.

وفي القسم التالي من مساهمة ملشيور تتكرر أسطورة "الأرض الخالية". يعني أن فلسطين كانت غير مأهولة حتى بداية الهجرة اليهودية في القرن التاسع عشر الميلادي. وليس علينا هنا إلا أن نقابل مع المعلومات الواردة في كتاب دار نشر بدكر (Baedekker) الألماني في عام (1891 ت ش)، التي كان سكان فلسطين بموجبها يبلغون (65000) نسمة، أقلية فقط غير هامة من اليهود كانوا قد هاجروا إلى فلسطين في الآونة الأخيرة.

3/5) المستوى العلماني والديني

بقليل من الجهد نستطيع أن نقتبس أقوالاً وحججًا مشابهة من مصادر ونصوص أخرى. سأترك هذا الموضوع جانبًا. لسنا بحاجة إلى التوقف عند النزعات القليلة المتفرقة التي تظهر بعض العقائد السياسية التي تصبح غير دارجة مثل: عندما لا يعود بعض الكتّاب يتحدثون عن الأرض الخالية، بل يطلقون عليها اسم «الخالية جزئيًا» قبل الهجرة اليهودية الحديثة، أو يَعدُّون أن الوجود اليهودي في فلسطين يعود إلى القرن الثالث عشر قبل التأريخ الشائع فقط. لن أضيع الوقت والمكان في تصحيح الادعاءات التاريخية التي تخص تاريخ فلسطين في فترة ما بعد اليهوذية، يعني: بعد أن طرد الرومان اليهود من آيليا كابيتولينا (Aelia Capitolina) (لم يعد الرومان يريدون أن يتذكروا حتى اسم أورشليم) في عام (135 ت ش)، أو بعد الفتح العربي في عام (637 ت ش). ومن البدهي أنه كانت هناك جاليات يهودية في فلسطين، على الأقل حتى وصل الصليبيون، وتصرفوا طبقًا لمعايير أوربة في العصور الوسطى،

6) توراة من، بأي حال؟: تاريخ فلسطين في العصر الحديدي في الألف الأول قبل التأريخ الشائع، بناءً على المخطوطات القروسطية العائدة إلى الألف الأول من التأريخ الشائع (إنغريد هيلم)

6/ 1) «كتاب» من، بأي حال؟

إن الجزء الأول من عنوان هذا البحث مستعار من كتاب فِلِب دِفِيز (Philip Davies)، «كتاب من، بأي حال؟/ Whose Bible is it Anyway ?». في هذا الكتاب، يجادل دِفِيز:

> الكتاب قد ينتمي إلى الكنيسة أو الكنيس أداة للممارسة الدينية، لكنه موضوع للدراسة الأكاديمية ينتمي إلى العالم كله. إن الدراسات الكتابية المذهبية تنتمي إلى حقل معرفي من الأفضل أن نطلق عليه مصطلح (الكتاب المقدس/ Scripture)، مع مصطلح (الدراسات الكتابية) الذي يسمى حقلاً معرفيًا لا يفرض أي شروط دينية ويتضمن أي شكل من الخطاب العقلاني والقابل للتوصيل عن الكتاب. إن

@NoorAlbersi_Library
Tele: Intellectualrevolution

المطلب الأساس لهذا الحقل هو الكلام ليس عن ‹الكتاب› بل عن الكتب (Bibles) [1].

في حين يحاول كتاب دِفِيز هذا تحرير النصوص الكتابية من روابطها الشرعية والمذهبية، مقدمًا تفسيرات جديدة لحكايات معروفة جيدًا، لأن «الكتاب هو لأي شخص يريد أن يجادل عنه مع أي شخص آخر، ويمكنه أن يستخدم الخطاب لفِعل ذلك»[2]، فإن كتبه الأخرى المتعلقة بالموضوع، وهي ‹بحثًا عن بني إسرءيل/ In Search of Ancient Israel, 1992 ›[3]، و‹طوائف ولفائف/ Sects and Scrolls 1996 ›[4]، و‹كُتّاب ومدارس/ Scribes and Schools, 1998›[5]، تسأل عن هوية المؤلِّفين والقراء القدماء بدلاً من أن تسأل عن التلقيات الحديثة لما أصبح الأدب القانوني [الشرعي]. في هذه الكتب لا يسأل دِفِيز «كتاب من هو؟»، بل: نصوص مَن، وكتب ومخطوطات من كانت؟. إلى من كانت تعود حقوق طبع النصوص، التي نعدها الآن، على نحو مغلوط، كما أظن، عائدة لنا؟. في حين أجد بحث دِفِيز عن المؤلفين والقراء القدماء هو الأكثر ترحيبًا، فإن لدي مشكلات مع محاولته عام (1995) للتنصل من الأحوال التي ظهرت فيها هذه النصوص إلى حيز الوجود. مع أن تمييزه الدراسات الكتابية المذهبية من غير المذهبية يبدو سليمًا، فإنه يستند على جزم فقهي من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين أن ‹الكتاب› هو في الحقيقة كتابنا والنص الذي نملكه هو النص القديم الذي ظهر إلى حيز الوجود أحيانًا بين القرنين العاشر والسادس قبل التأريخ الشائع. إن الجزم، الذي لا يوافق دِفِيز عليه، قد جادل طويلاً دفاعًا عن تطوير الأسفار الكتابية بعد السبي وأشار إلى تعددية التراثات النصية، يعتمد على مقاربة نقدية تاريخية، فقهية للأسفار الكتابية، التي يمكن تمييزها بصعوبة عن المقاربة المذهبية. إن هذه المقاربة هي التي يريد دِفِيز أن يغيرها بتمييزه المقترح بين (الكتاب المقدس) و(الدراسات الكتابية).

على كل، يجب إقامة التمييز بالأحرى بين الاستعمال المذهبي، القائم على إدراك لوراثة النصوص، التي كانت تنتمي إلى شخص ما آخر، والاختصاص الأكاديمي، الذي ينبغي ألا يكون قد سمح له بأن يستغني عن دراسة الأوضاع التي ظهرت فيها هذه النصوص، واستعمالها وتناقلها. يجادل دِفِيز هذه الأخيرة، في حين يسمح للمذهبية بأن تقوم بالقراءة التي تريدها مهما كانت، بأي شيء مكتوب تمتلكه. إنني أتفهم رغبة دِفِيز في تحرير الاختصاص الأكاديمي من قبضة الكنيسة والدين، لكنني أخشى أن يكون فَصلُ (الدراسات الكتابية المذهبية/ confessional biblical studies) عن (الدراسات الكتابية) سيفًا ذا حدين، من شأنه أن يعمق القراءة الأصولية للكتب (Bibles) بدلاً من أن يحدث العكس. برأيي أن كل قراءات الكتاب المقدس القديم يجب أن تبدأ بتقييم نقدي لمضمونه وسياقاته، مع إبداء الاحترام لأصوله بمقدار ما يمكن إثباتها. إن تعليق بول ريكور (Paul Ricoeur) «النصوص القديمة مثل الأيتام» لا يعطينا الإذن بتزويدها بآباء جدد، وتزويدها بأي معنى أو استخدامها لأي غرض نريده. إن الأمثلة على التفسيرات غير المضبوطة للنصوص الشرعية لأغراض عقيدية أو لاهوتية، التي تخاطر بأن تصبح مرسخة بعدها عقائد إيمان علنًا أو، سرًا، هي دليل.

نتيجة لإخفاق (بالأحرى: عدم رغبة) الفقه النقدي التاريخي، من ناحية أولى، في إنشاء العوالم الفكرية والاجتماعية وراء نصوصنا الكتابية اللاحقة مستقبلاً، ومن ناحية أخرى، تقديم قراءات نقدية أدبية لهذه النصوص، فإن الدراسات الكتابية قد انقسمت إلى جنسين أدبيين فرعيين: فئة تدعي أنها تقرأ النصوص الكتابية قراءة تاريخية على نحو نقدي، الشيء الذي يعني في معظم الأحوال ليس قراءة النصوص التي بحوزتنا على الإطلاق، والفئة الأخرى التي تظن، بغض الطرف عن الأهمية النقدية التاريخية، أن بإمكانها أن تفهم النصوص القديمة عن طريق 'كشفٍ' مختلف للتزامنية في وبين النصوص،

والكتب والشرائع. هذه القراءات الأخيرة بالتأكيد أعطتنا كثيرًا من المعلومات القيمة عن الاستراتيجيات الممكنة وديناميك النصوص الكتابية، وإنشاء النصوص، والسمات اللغوية [الألسنية] الخ.

تكون استجابة القارئ موجهة، فقد أصبح نوعًا من البدعة أن نتحدث عن إقناعية النص، الذي يواجه القارئ[6]. إن إقناعية الحكاية الكتابية، مع ذلك، تنتمي إلى فهم وإدراك قارئها للحكاية، وقد تكون جزءًا من ترتيبها وخطابها. في حين أن النقاد الأدبيين مقتنعون بكشف مثل هذه الاستراتيجيات الممكنة، فإنني أجد أنه من المهم أكثر أن نتأمل المقاصد الممكنة لإبداع قصة مقنعة. هذه المقاصد تقع خارج القصة، ووجودها الواقعي يجب أن يكون مؤهلاً بتحليل لنقاش المادة خارج الكتابية القديمة والتعليق على قصة مفترضة ومادتها ذات الصلة. باستعمال الأساليب والبصائر المكتسبة من النقد الأدبي، نكون قادرين على، ويجب، أن ننتقل مرة أخرى إلى النقد التاريخي. بسؤال أكثر أهلية لإطار تاريخي: «مَنْ كتب النص؟، لمن كُتب؟، ماذا كان الغرض من النص؟، ما الرسالة المضادة للنص؟. إننا لا نسأل هنا عن تاريخية «تاريخنا الكتابي»، بل بالأحرى عن محدِّد هوية قصة مفترضة من قبل أولئك الذين كان ينتمي إليهم. إن تحديد 'ملكية' الكتاب بما قدمه الكتاب قد أدخل الفقه التاريخي النقدي في حالة شديدة من الدفاع عن القصة كما لو كانت تاريخًا. إن علم التأويل قد ركز أساسًا على تقصي أصل النص ومعناه بوصفه متصلاً بتسلسله الزمني (التتابعي) الحكائي الصريح، في حين يتجاهل البحث عن هويات أولئك الذين كتبوا واستعملوا ونقلوا القصة.

6/ 2) النصوص الكتابية والمؤلِّفون القدماء: مغالطات مفارقة تاريخية/ زمنية

إن الجزء الثاني من العنوان: تاريخ فلسطين في الألف الأول قبل التأريخ

الشائع من العصر الحديدي القائم على مخطوطات الألف الأول الميلادي يرتبط بمثل هذه المشكلات تمامًا. فما الأساس النصي لمعظم تواريخ فلسطين العصر الحديدي؟. هنا يوضع التشديد على كلمة أساس، وليس على المادة الإضافية للأنواع المختلفة التي نستعملها لتنقيح وتصحيح هذه التواريخ. إن الأساس النصي للتاريخ القديم لفلسطين هو أسفار صموئيل والملوك الكتابية وإلى درجة أدنى سفر الأخبار. هذه الأسفار تكوّن الهيكل العظمي لفهمنا للأوضاع والأجواء السياسية والجغرافية والديموغرافية والدينية، ليس فقط في بني إسرءيل، بل في فلسطين كلها. بعدِّها مصادر لكثير من فهمنا لهذا التاريخ، يمكن أن يتوقع المرء أن هذه الأسفار قد جرى تجنيدها بكل الأساليب النقدية المصدرية الممكنة: لغويًا، وأدبيًا، وتاريخيًا . . إلخ لإثبات مصداقيتها. في الواقع جرى فحصها علينحو شامل، على الأغلب من قبل الباحثين الذين يشتغلون على ظاهر النصوص كلٌ من منظوره الضيق تمامًا في الغالب ومن مصلحته، في حين يتركون لقليل جدًا من الباحثين، فعلاً، البحث عن فهم شامل، يتجاوز النص ذاته. إن نتائجهم لا تبدأ إلا على نحو بطيء بالتأثير على وتغيير الحقل كله. إننا نرى الآن اهتمامًا متناميًا بالعهدين الفارسي والهلنستي بعدِّهما فترتين تكوينيتين للتراثات الكتابية.

ثمة عدة مغالطات في دراسة البحث الرسمي للنصوص الكتابية. سأذكر أربعة:

تبدأ المغالطة الأولى بقراءة النصوص المنقولة نفسها، سواءً كان الباحثون يستعملون ترجمات أم نصوصًا أصلية عبرانية أو يونانية. دعونا ننظر إلى ما نعرفه عن 'النص الأصلي' العبراني. إن الباحثين يعدون عادة النص العبراني الموجه، الذي نشرته (الجمعية الألمانية/ Deutsche Gesellschaft) سواءً على أساس (المخطوطة اللينينغرادية/ Codex Leningradensis) على يد آرون بن آشر من (مجموعة طبرية/ Tiberian Group) من عام (1008 ت ش)، أو على طبعات أخرى، تقوم على المخطوطات الماسورية للقرنين العاشر والحادي عشر،

بوصفه النص 'الكتابي' الأساس. إن نمط هذا النص، القائم على النصوص الصحيحة الأحرف لأواخر الألف الأول قبل التأريخ الشائع، المحفوظ في الترجمات الآرامية والعبرية الحاخامية، تطور على مدى أربعمئة سنة منذ القرنين السادس إلى العاشر من التأريخ الشائع[7]. إن نمط النص الماسوري الأصلي غير المحرك، الذي نجده في بعض لفائف البحر الميت، كان واحدًا من أنماط أخرى في أزمنة ما قبل المسيحية، ولم يصبح نصًا معياريًا لأجل معظم الفئات في اليهودية إلا في أثناء المراجعة والحفظ الحاخاميتين[8]. إن التحليلات المقابلة للتراثات النصية اليهودية واليونانية والكتابات المنحولة والأبوكريفا ولفائف البحر الميت، والترجوم (Targumim) ويُسِفُس، والتراثات النصية السامرية كالخماسية السامرية، وسفر يشوع السامري والأنسابيات والأخبار، قد كشفت أن التراثات والنصوص الماسورية يجب ألا تعطى الأولوية، بداهة، ضد هذه التراثات الأخرى، نظرًا لأن التراثات الماسورية، التي نستخدمها، تمثل نتاجات نهائية أكثر من كونها نتاجات تكوينية[9]. وتكمن قيمة النص الماسوري أولاً وقبل كل شيء في شموليته، ونمطه الشرعي. إننا نبدأ برؤية معالم هذا النمط في القرنين الثالث إلى الثاني قبل التأريخ الشائع، لكنه لم يحقق التحول إلى النمط المعياري الذي نقل به إلا بعد وقت متأخر كثيرًا.

فيما يتعلق بالنص 'الأصلي' اليوناني كما نُقل في السبعونية (Septuagint)، تبرز مشكلات نصية مشابهة. مع ذلك، فإن الدليل على أنماطه في المادة غير الكتابية القديمة يبدو أنه أفضل برهانًا من نمط مكافئه العبراني. فهو على الأقل أكثر انتشارًا.

إن [مسألة] ما إذا كان يُعزى ذلك إلى تفضيل المؤلفين القدماء، الذين كتب معظمهم باليونانية، اللغة اليونانية على العبرية، لا تزال بحاجة إلى دراسة. لطالما كان معترفًا به أن السبعونية ليست ببساطة ترجمة للنصوص العبرية وأن الأسفار الكتابية العديدة قد وجدت على نحو معاصر في طبعات يونانية

مختلفة، كان بعضها يختلف اختلافًا جوهريًا عن طبعتها العبرية المزعومة. إن ما نتعلمه ضمنًا من الاستعمال الواسع الانتشار للأنماط المختلفة اليونانية. هو أن النص العبراني في تلك المرحلة المبكرة لم تكن له موثوقية على خلفية هذه الأنماط المختلفة.

فيما يتعلق بتلقيها، علينا أن نتذكر أن الكنيسة اليونانية قد اختارت النصوص الكتابية اليونانية القديمة، التي صارت تؤلف السبعونية، في حين أن الروم الكاثوليك فضلوا الترجمات اللاتينية المستندة على تشكيلةٍ من المخطوطات اليونانية القديمة واللاتينية والعبرية. لم تكتسب المخطوطات العبرية أهمية في الكنيسة اللوثرية المسيحية بوصفها نص الكتاب حتى إصلاح الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر الميلادي، مع ما ترتب على ذلك من أن الدراسات الكتابية في الجامعات صارت تستند على التراثات النصية العبرية أكثر مما تستند على التراثات النصية اليونانية أو اللاتينية.

فيما يتعلق بالتراثات العبرية، فقد كانت، علاوة على ذلك، هي النصوص التي حفظها وطورها الماسوريون، التي جرى اختيارها خلافًا للتراثات النصية الأخرى، أي تراثات السامريين أو القرائيين. إن تراثات السامريين، مثل نظيراتها العبرية، تراثات قديمة وقروسطية. إن كتاباتهم، الكتابية [التوراتية/ الخماسية السامرية] ولاكتابية، لها موازيات قريبة في النصوص لاماسورية، كالسبعونية، والنصوص النقشية المنحولة والأبوكريفية، ونصوص يُسِفُس والمؤلفين اليهود الأوائل الآخرين. من المقابلة الأولى لهذه النصوص في القرن السابع عشر ميلادي ظهر أن للخماسية السامرية (6000) نمطًا مختلفًا للنص الماسوري تتطابق (1900) منها مع السبعونية[10]. إن الدراسات الحديثة التي أجراها السامريون، تحصي (7000) نمط مختلف. لا أعرف ما الأساس النصي لتلك المقابلة. أما فيما يتعلق بسفر يشوع السامري وسفر الأخبار السامري، الذي يوازي سفر القضاة – سفري الملوك التوراتيين، الأقدم من هؤلاء

7) أنشودة انتصار مرنفتاح وإسرءيل وشعب فلسطين (توماس طمسن وإنغريد هيلم)

لا يقدم (رُقَيْم مرنفتاح) لنا سوى أقدم استعمال معروف للاسم ‹يسرءيل›. مع ذلك، فإن هذا الاسم القبلي في قائمة مرنفتاح، لا يتطابق مع الاسم كإشارة إلى دولة العهد الآشوري، أو إلى عشيرة ‹شرءل› من (منحوتة سامريا/ Samaria Ostraca) أو إلى أي استعمال كتابي للمصطلح. هكذا لا يمكن للمرء أن يثبت وجود إسرءيل ‹الكتاب›، في هذه الفترة المبكرة، اعتمادًا فقط على سند (رُقَيْم مرنفتاح)[1] ‹Th. L. Thompson 1992:311›. لقد كتب هذا في عام (1992)، وكان يبدو أنه الخلاصة لما يمكن قوله بخصوص أصول إسرءيل الكتابي. إن الاسم 'إسرءيل'، مثل كل الأسماء القبلية الأخرى التي ترد في ‹الكتاب› كالفلسطيين والآموريين والعبرانيين والكنعانيين . . له مجموعة من الدلالات، وذلك تبعًا للتاريخ والسياق. إن أقدم استعمال غير كتابي للاسم يسرءيل ‹يسرءل› كان في العصر البرونزي. كما أن استعمال الأسماء فِلِسطِ (Peleset) وآمورو وخفيرو/ عفيرو وكنّاحي، لا يمكن مماهاته كليًا بمدلولات مثل هذه الأسماء في ‹الكتاب›. ويمكن للمرء القول إن للأسماء استمرارية أكبر وتاريخ أطول من الهوية الجماعية التي تشير إليها.

@NoorAlbersi_Library
Tele: Intellectualrevolution

في عام (1998) كتب زميلنا نيلز بيتر لمكة عن هذا النقش يقول:

> يصف مرنفتاح في نقشه كيف قهر الليبيين إلى الغرب وشعوب آسيا، بمن فيهم إسرءيل، إلى الشرق. على مدى مئة عام كانت الوثيقة تعد على نحو صحيح برهانًا ملموسًا على وجود إسرءيل في فلسطين في حوالي (1200 ق ت ش). من الواضح، أن نقش مرنفتاح يمثل أقدم تلميح غير كتابي (extrabiblical) إلى البدايات الغامضة لإسرءيل[2].

يمكن الادعاء أيضًا أن السجال بشأن (رُقَيْم مرنفتاح) ومسألة تاريخ إسرءيل في فلسطين العصر البرونزي يقع في مكان ما بين هذين البيانين. إذ أن قليلين اتفقوا على دقة الطريقة التي تقرأ بها البيانات النص وتفسره؛ أي، أنه يمكن أن يقرأ هكذا بالضبط. إن معظم التفسيرات تنتقل في اتجاه التأمل الذي لم يتأكد بعد من هذه القراءة المحافظة. إن (إسرءيل ما) يمكن أن يدل ضمنًا على شعب، أو حتى على جماعة إثنية، كأولئك الذين يقطنون في المرتفعات انتهاءً بـ وبما في ذلك قراءة هذا الـ(إسرءيل) أسلافًا للمؤلفين الكتابيين تحت زعامة يشوع. مع ذلك، فإن السجال عن القيمة التاريخية للرُقَيْم بعدِّه دليلاً مباشرًا يقع في مكان ما بين البيان السلبي لطمسن، الذي يقيم تفريقًا بين استعمال العصر البرونزي واستعمال النصوص اللاحقة، وبيان لمكة الأكثر ايجابية، الذي يلح على نحو واضح على استمرارية الأسماء. قبل أن نستمر في اختلاق تواريخنا الأكثر توسعًا، فإن هذا السجال بشأن الرُقَيْم بعدِّه دليلاً بحاجة إلى دراسة: ما طبيعة الربط الذي يمكن ايجاده بين (رُقَيْم مرنفتاح) والتاريخ اللاحق للمنطقة مع إسرءيل الكتابي؟.

يحتاج المرء إلى أن يفعل أكثر قليلاً من أن ينفتح على النص في أنطولوجيا جيمس بريتشارد (James P. Pritchard) ويُواجه المرء بتحذير جون ولسن (John Wilson) «النص ليس تاريخيًا، بل هو بالأحرى مديح شعري لفرعون

ظافر كونيًا». لذلك لم يكن في غير مكانه أن يجري تقديم الانتصار الحقيقي أو المجازي على الشعوب الآسيوية في آخر قصائد الترنيمة. في ذاك السياق نصادف المثال الوحيد على اسم 'إسرءيل' في الكتابة المصرية»[3]. مثل هذا التحذير يتعين الأخذ به إذ لا مكان هنا لقراءة الواقعية الساذجة. على الخصوص، إن تفريق ولسن بين انتصار "حقيقي" أو مجازي على الشعوب الآسيوية هو الأكثر إزعاجًا، خصوصًا لأولئك الذين قد يرغبون في تحديد تاريخ مستويات التدمير في فلسطين على قاعدة هذا النص. مع أننا نملك نصوصًا أخرى تعطينا دليلاً وافرًا على الظن بانتصار مرنفتاح على الليبيين، فإن مشكلاتنا ترتبط بقراءة هذا النص، لا يتغنى آخر أناشيده على نحو مباشر بالنصر الليبي لمرنفتاح، بل بالاحتفال بالسلام بين «الأقواس التسعة» الموضّح بالاستعانة بالأسماء الإقليمية والمكانية والقبلية من آسيا. لذلك فإن مسائل الجنس الأدبي للنص وخطابته يجب أن تمارس دورًا مركزيًا.

إن تحديد تاريخ النقش باليوم الثالث من الشهر الحادي عشر من السنة الخامسة من حكم مرنفتاح يشير إلى النصر على ليبيا[4]. إن التاريخ والنصر تؤكدهما ثلاثة نقوش أخرى. إن (نقش الكرنك الكبير) يعطينا رواية المعركة. يُحدد تاريخ إعلان الغزو الليبي عن طريق عامود القاهرة (الذي يملأ فجوة السطرين 12–13 في نفس نقش الكرنك الكبير) بالشهر الثاني من الفصل الثالث من السنة الخامسة لحكم مرنفتاح والنصر الحاسم يتحدد تاريخه عن طريق (رُقَيْم أتريبيس/ Athribis Stele) ب«اليوم الثالث من الشهر الثالث من الفصل الثالث»[5]. في حين يعلن مرنفتاح، في (نقش الكرنك الكبير)، أن الجيش سيكون «مستعدًا للمسير في أربعة عشر يومًا»[6]، فيجب على المرء أن يقرأ هذا بوصفه استجابة للغزو، ضمن خطابة المجاز العسكري ال(Semper Fidelis) الذي يمجّد دقة نظام مرنفتاح الدفاعي وفعاليته. على نحو مشابه، فإن وصف المعركة لمدة ست ساعات منذ الفجر الأول، بعد ليلة اليوم الثاني

من الشهر الحادي عشر[7]، يمتلك مثل هذه القيمة الدرامية الكبيرة، حيث يتعين علينا أن نرى ذلك على أنه يعزف على مثالية ملائمة لإعلان النصر في اليوم الثالث. بالنظر إلى الاعتراف بمثل هذا الميل الفني في وصف نقوش الكرنك الكبير للمعركة، فإننا مع ذلك نسلم أن ثمة مسوغًا للقبول بأن غزو الليبيين وهزيمتهم اللاحقة على يد الجيش المصري يمكن فهمهما بعدِّهما حدثين تاريخيين مهمين من العام الخامس من حكم مرنفتاح. أي، إن «التاريخية الأساس وتحديد تاريخ نقش الكرنك يمكن إثباتهما بكل الإمكانيات».

على كل، كلما زاد ميلنا إلى إضفاء التاريخية على (نقش الكرنك الكبير)، زادت مشكلاتنا مع (رُقَيْم مرنفتاح). ففي حين أن التاريخ المعطى للنقش عند افتتاحه يجري تعديله إلى يوم المذبحة الكبيرة لليبيين في (رُقَيْم أثريبيس)[8]، يجد المرء أن الوصف لا يمتد فقط إلى أثريبيس و(نقش الكرنك الكبير) ويبدو في كثير من الأحيان أنه يستشهد بهما ويعيد صياغتهما، بل إنه أيضًا يقدم النصر الليبي بعدِّه دليلاً أوليًا على موضوع احتفال الأنشودة؛ أي: قوة وعظمة مرنفتاح. مهما تكن حداثة الشخص الذي يحكم عليه، فإن النصر ينتمي إلى الماضي؛ إنه يبرهن على مجد الملك. «لقد أصبح مضرب المثل فيما يتعلق بليبيا التي يقول شبابها 'لم يحدث لنا [من قبل] منذ زمن رع' وكل رجل عجوز يقول: 'واحسرتاه على ليبيا! فهم [أي الليبيون] قد انتهوا من الوجود [كما فعلوا من قبل]'». وثمَّ فإن الشيء الأبرز والأهم هو أن الغزو يُصور في الماضي: «إن (التخنو/ Tehenu) قد أبيدوا في عام واحد. وإن المستوطنات قد أخليت»[9]. على نحو مماثل، عندما يتقدم الرُقَيْم نحو خاتمته، فإنه يتكلم عن الفرح الذي جاء إلى مصر مع التشديد على شهرة الفرعون[10].

إن النصر على الليبيين في الرُقَيْم يؤدي وظيفته ببساطة بعدِّه سجلاً لانتصار حديث، أو حتى احتفالاً بذاك النصر. فالرُقَيْم يخدم الوظيفة الأكبر لتمجيد العظمة المتسامية للملك باستذكار مثال حديث على جبروته. إن نصنا يمتلك

صفات أسطورية. إن (رُقَيْم مرنفتاح)، الذي يردد صدى حلم (نقش الكرنك الكبير) بتمثال لفْتَاح وهو يعطي مرنفتاح السيف الذي يطرد كل الخوف[11]، إضافة إلى المشهد على (عامود القاهرة) الذي يظهر إلهًا يعطيه سيفًا ليدمر زعماء ليبيا[12]، يضع السيف السحري مع الاعتراف بدوره ابن إله، يجلس على عرش شو (Shu)[13].

إن افتتاحية هذه الحركة تبين أن التقديم مسرحي أكثر من كونه وصفيًا تاريخيًا: إن (الربو/ Rebu)، البائسين آنذاك يُوضعون في تباين مع المصريين الآمنين والمبتهجين. وجرى التعبير عن الصفة الأسطورية للتقديم أيضًا في التضاد بين القائد الليبي والفرعون. فالقائد الليبي هو سبب الاضطراب وموضوع غضب الملك. لذلك فإن مصيره الصحراء. ليكون إذلاله كاملاً. [وهو] يفر في الظلام، بلا كسوة تغطي رأسه، وتؤخذ نساؤه منه أمام ناظريه (كذا). كما يعلن رُقَيْم الكرنك: «إنه صريع، وكل إله هو لمصر»[14]. في (رُقَيْم مرنفتاح)، يُصور الأمير الليبي على أنه يهاجم «كل إله يوجد في ممفيس». لقد وجدته الآلهة متلبسًا بجرائمه[15]. تعاد ممفيس إلى حماية ابنها.

هكذا يُصاغ وصف الفرعون بلغة الأسطورة. إنه الوسيط للعناية الإلهية، المنقذ للشعب وحارس السلام، كل ذلك يعبر عنه من خلال التحكم الإلهي بمصيره. إنه يعكس معاناة وسوء طالع شعبه. إنه يفتح البوابات الموصدة. إنه يمنح الروح للذين اختنقوا. إنه يتحكم بالقَدَر، يعيد العدل إلى نصابه، علامة وإشارة على سلام يبشر بقدومه بأسلوب قريب على نحو ملحوظ من الأنشودة التي يجري إنشادها عند الصعود إلى العرش[16]. إن عظة (رُقَيْم مرنفتاح) التي تجد فيها الترنيمة خاتمتها الموضوعية توضع في العبارات التقليدية لأنشودة 'الرجل الفقير للعقيدة الملكية': إنه يفتح ما كان موصدًا؛ يحرر الذين جرى أسرهم؛ يدع الأمراء يستعيدون ثروتهم ويسمح للفقراء بأن يعودوا لدخول مدنهم[17].

هذا العنصر (الثيمي) يتكرر في الأنشودة التي يجري إنشادها بمناسبة صعود مرنفتاح إلى العرش وكذلك في أنشودة مماثلة بمناسبة صعود رمسيس الرابع[18]: «إن الذين فروا قد عادوا إلى بلداتهم؛ والذين كانوا مخفيين ظهروا مرة أخرى. الذين كانوا جائعين شبعوا وابتهجوا؛ والذين كانوا عطشى قد ارتووا؛ والذين كانوا عراة قد اكتسوا بالكتان الناعم؛ والذين كانوا متسخين قذرين باتوا ملفعين بالبياض؛ والذين كانوا في السجن هم الآن أحرار. الذين كانوا [مكبلين] بالسلاسل هم الآن في فرح شديد. المشاغبون في هذه البلاد أصبحوا مسالمين»[19]. هذا التوازي بارز ليس فقط بسبب العبارات المتشابهة، بل بسبب سياقه المتشابه. فقد جاء رمسيس الرابع إلى العرش من خلال صراع على السلطة في القصر، يشمل التآمر والفوضى. إن صعوده إلى العرش، مثل طرد مرنفتاح للغزو الليبي، يعيد النظام الجيد للخلق. تُقرأ الأحداث السياسية في سياق المتعالي.

إن الهدف الضمني من تقديم (نقش مرنفتاح) الفرعون في هذا الدور المألوف للمنقذ الإلهي، دور يمارس على نحو مركزي للغاية في الترنيمات من هذا النوع منذ زمن تحتمس الثالث[20] على الأقل يعبر عنه صراحة بتوسل خطابي لآلهة هليوبوليس في الحركة الوسطى من الترنيمة[21]. تُوجه الترنيمة إلى تجديد الملك في حكمه ولها عقيدة مشابهة لعقيدة (مهرجان سد/ Sed Festival)[22]: «امنحه بقاءً مثل رع». إن توجه مستقبل مرنفتاح هو كوني وإمبراطوري. مصدر قوة مرنفتاح هو مصر، لكنه يصبح المنقذ والراعي للمضطهدين في كل البلدان؛ الكل يستمدون روحهم منه[23]. يمكن العثور على التعبيرات عن هذا المجاز، تعبير عن الخلاص الإلهي، في ترنيمة أخناتُون إلى أتون[24]. «في بلدان سورية والنوبة، أرض مصر؛ إنك تضع كل إنسان في مكانه؛ إنك تلبي حاجياته . . تصنع نيلاً في العالم السفلي؛ إنك تخلقه . . لصون الشعب [شعب مصر] إنك سيد كل البلاد التي تثور لها كل البلدان الأجنبية البعيدة، إنك تصنع حياتها؛

لأنك فجرت نيلاً في السماء، يمكن أن يهبط لأجلها ويصنع أمواجًا فوق الجبال . . ليسقي حقولها في بلداتها»[25].

إن عنصر السلام الثيمي لأجل البشر كافة، الفكرة الرعوية للفرعون راع كوني، للمصريين والأجانب على درجة سواء، يهيمن على الجزء الثالث النهائيً من أنشودة نصر مرنفتاح. يبدأ الفصل الختامي بالإعلان التقليدي «للخبر الجيد» الذي ينتمي إلى موضوعة الملك الذي يعيد تأسيس نظام الخلق. «جاء الفرح الكبير إلى مصر؛ الابتهاج يتقدم من بلدات تومري (Tomeri)»!. هذا هو «الخبر الجيد» نفسه الذي يعلن يومًا جديدًا لأن مصر كانت أول من جلب مرنفتاح إلى العرش: «ابتهجي، يا كل البلاد! فعصر الخير قد جاء»[26]؛ وهو تصريح يفتتح تعبيره الأكثر كونية للنشيد بسبب صعود رمسيس الرابع: «آه أيها اليوم السعيد. الأرض والسماء في ابتهاج، لأنك السيد العظيم لمصر»[27]. في (رُقَيْم مرنفتاح)، يُحتفل بالسلام نوعًا من القيل والقال السعيد في مديح الملك، إذ لا يوجد خوف. فالكل سعداء وهادئون؛ لا حاجة حتى إلى الحذر. يحتفل بالسلام بوصفه عودة رع إلى الأرض. بعد هذا الوصف للسلام الرعوي الذي جاء إلى مصر، تتبع أنشودة مرنفتاح النمط المستعمل لأجل النيل الجالب للحياة في ترنيمة أخناتُون إلى أتون: هبة السلام الإلهية، مثل النيل، تأتي أولاً إلى مصر ثم إلى «الشعوب الأجنبية ووحوش كل صحراء». الفرعون هو «سيد كل البلاد . . فهو يصنع الحياة لكل البلدان البعيدة»[28]. تختتم ترنيمة مرنفتاح بأنشودة من عشرة أبيات تمجدّ السلام بين "الأقواس التسعة":

الملوك يستلقون ساجدين، يقولون سلامًا (شالوم)!
لا أحد يرفع رأسه بين الأقواس التسعة
صحراءُ هي ليبيا
حتى مسفوعة[29]

غزة منهوبة، بكل مصيبة
مهجّرة عسقلان،
مكبلة جازر،
ينعام كأنها غير موجودة.

***

إسرءيل مدمرّ، بذرته لم تعد موجودة
حورو أصبحت أرملة لمصر.
كل الأيادي موحدة، إنها في سلام
كل من كان في اضطراب هو مكبل من الملك مرنفتاح؛
إنهم يمنحون حياة مثل رع، إلى الأبد.

هذه الحركة الختامية ليست أنشودة فتح [غزو]، مع أنها لا تستبعده. إنها تبدأ وتنتهي بعنصر 'شالوم' [السلام] الثيمي. الأمراء ساجدون، يقولون: شالوم. لا أحد يرفع رأسه بين الأقواس التسعة. من الخطأ أن نقرأ كناية الأمراء الساجدين هذه بوصفها تنطوي على إذلال الأعداء، إذ إن مباركتهم للسلام تقوض ضمنًا عن طريق سخرية المؤلف. فالسجود أمام الملك هو الوضع الطبيعي لأي زبون أمام حاميه. توجد كناية مشابهة جدًا على (رُقَيْم الحلفا/ Halfa stele) الذي يمجد حكم رمسيس الأول: «كل آلهة مصر . . متحدة بقلب واحد؛ كل الأراضي؛ كل البلدان، الأقواس التسعة ساجدة . .»[30]. تمثل الأقواس التسعة البلدان الأجنبية التي ينظر إليها على نحو مثالي، زبائن للملك في نقش تتويجه، توصف سيرة حارمحب بعدّه وزيرًا. «لقد أدار البلدين على مدى فترة من سنوات كثيرة . . هناك جاء إليه زعماء الأقواس التسعة، الجنوب كما

الشمال»[31]. فيما بعد في المراسم، تنسب إليه دورة الشمس. «الأقواس التسعة تحت قدميه»[32]. في نقش آخر، الذي يمجد الحملة إلى بلاد الفنت* توضع الكلمات التالية على أفواه زعمائها، الذين يصورون وهم يقدمون الجزية. إنهم يخاطبون حار محب بوصفه «شمس الأقواس التسعة»، ويستجدون منه «النَفَس (مانح الحياة) الذي يعود إليك إعطاؤه. كل البلدان تحت قدميك»[33]. إن لغة الحماية هذه لا تناقض الكتابة الأخرى الأكثر عسكرية والمستلهمة من الخوف: «لقد وضعتَ الزعماء في اضطراب . . الخوف قد دخل أجسادهم، ورعبك في قلوبهم . . عظيم جبروتك في كل بلد»[34]. في نقش عن سجناء سطي الأول في الكرنك، لا يُوصف رطنو (Retenu) الوصف العادي المبتذل «بائس» فقط بل إن زعماء الأسرى أنفسهم يصرخون: «البلدان تبتهج لكونها خاضعة لك؛ الذين يتجاوزون حدودك يكبلون»[35] باستعمال عبارة تدل على روابط الولاء. إن الفرعون، الشمس التي تشع فوق الأقواس التسعة، يقيد الأجنبي/ الغريب «تحت قدمي حورس»[36].

إن فكرة الفرعون بوصفه راعيًا فوق الأقواس التسعة، أمراؤها ساجدون أمامه، لا أحد منهم يرفع رأسه، هي فكرة نألفها كثيرًا في الدراسات الكتابية في العنصر الثيمي للملك الإلهي بوصفه ابن يهوه الذي نجده في المزمور الثاني. «الأمم في اهتياج» تخطط لكسر السلاسل التي تقيدها إلى يهوه، تمارس الدور نفسه الذي تمارسه الأقواس التسعة للميثولوجيا المصرية. إن داوُد أيضًا يمنح أطراف الأرض مُلكًا له، وهو يلوم الحكام الأجانب، كما من قبل نساخي ساطي، الذين يأمرهم أن يكونوا حكماء وأن يخدموا الملك بخوف وارتجاف: «قبلوا قدميه، لئلا يغضب فتهلكوا». وما هي رسالة نصوصنا؟. فيما يتعلق بالأقواس التسعة لمرنفتاح كما لأجل أمم داوُد الهائجة: «بوركتم جميعًا أيها الذين تلجؤون إليه»[37]. الأبيات الافتتاحية لمقطع مرنفتاح الختامي هي مقطع السلام: لا أحد يتمرد، إنهم مكبلون ويقولون شالوم.

@Intellectualrevolution @NoorAlberssi_Library